مكتبة فلسطين للكتب المصورة

من الشرق والغرب

الدين والميثاق

بقلم
أحمد الشرباصي
الأستاذ بالأزهر الشريف

من الشرق
والغرب

الدين والإسلام

بقلم أحمد الشرباصي
الأستاذ بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

تصدير

« إن شعبنا يعتقد فى رسالة الأديان ، وهو يعيش فى المنطقة التى هبطت عليها رسالات السماء » .

« إن شعبنا يملك من إيمانه بالله وإيمانه بنفسه ، ما يمكنه من فرض إرادته على الحياة ، ليصوغها من جديد وفق أمانيه » .

هاتان عبارتان وردتا فى ميثاق العمل الوطنى الذى أقره المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى يونيه سنة ١٩٦٢ ، وهما تدلان على مايعطيه الميثاق من عناية وتقدير لناحيتى التدين والإيمان ، ومن وراء هاتين العبارتين عبارات أخرى ، ومقررات تدور حول الدين ، والعقيدة ، والأخلاق ، والقيم الروحية ، والقوى المعنوية ، وهى تنبث فى أبواب الميثاق ، وتسرى فى أرجائه سريان الدم فى العروق ، أو سريان النور فى مجاله ، والإيمان أكبر من أن يكون قطاعا منفصلا يحده حيز أو باب ، لأنه روح يشع ويتعمق وينبث هنا وهناك .

وفى الصفحات التالية أحاديث عن القيم الدينية والأخلاقية والمعنوية التى جاءت الإشارة إليها فى « الميثاق » ، وفى « تقرير الميثاق » ، ونحن هنا نتذكر ما قرره المؤتمر من أن الميثاق وتقريره « إذ يصدران عن إرادة الشعب ممثلا فى

المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية – يعدان تعبيرا عن إرادة واحدة ، مما يرتب لما تضمناه من مبادىء وأسس آثاراً واحدة » .

ولست أزعم أن هذا البحث قد استوفى كل مايمكن أن يقال عن القيم الدينية والروحية ، إذ من الممكن أن تصاغ فى تلك الأمور بحوث أخرى ، و لكن حيزا محدودا للبحث لابد أن يسوقه إلى الوقوف عند حد معلوم من الكلام .

وإنا لنرجو الله عز وجل أن يهب هذه الأمة الناهضة ، وقائد ثورتها ، ورجالها العاملين ، من أسباب العزم والحزم والصبر والتوفيق ، والاهتداء بهدى الله تعالى ، ما يجعلون به مبادىء الميثاق حقائق واقعة ، تحقق الخير لبلادنا وقومنا ، وتسهم فى دفع الركب الإنسانى إلى مزيد من خطوات التقدم ومراحل السعادة فى الحياة ، وعلى الله قصد السبيل .

أحمد الشرباصى

شعاع من كتاب الله

قال الله تبارك وتعالى :

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لو أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَه لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ الْمِهَاد . أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْد الله وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْه ربِّهِمْ ، وأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، ويدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَة ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار ، جَنَّاتُ عَدْن يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِم ، والْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب :

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فنِعْمَ عُقْبى الدارِ . وَالَّذين ينْقُضُونَ عهْدَ الله منْ بَعْدِ مِيثاقِهِ ويَقْطَعُون مَا أَمَر اللهُ بهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُون فى الأَرْض أُولئِكَ لَهُمْ اللَّعْنَةُ ولَهم سُوءُ الدَّارِ »

« سورة الرعد »

درع الايمان

كان صدور الميثاق الوطنى حدثاً بارزاً فى حياتنا وتاريخنا ، فلأول مرة فى تاريخ النضال الوطنى المعاصر ، تختار الأمة ممثلين لقواها وقطاعاتها ، ليتلاقوا فيتناقشوا فيبرموا فيما بينهم وثيقة قومية ، تكون موطنا إجماعيا للتعاقد والتعاهد ، وبذلك يخضع لها الجميع ، ويعمل بمقتضاها الجميع ، وتكون كالنبراس الذى يضىء الطريق أمام المجتمع ، والدستور ، والقانون ، والعمل الثورى .

ولقد تضمن الميثاق طائفة ضخمة من القيم والمبادىء ، ومن الخطط والمناهج ، ومن الوسائل والأساليب ، وكان البعض يحسب أن الميثاق سيقتصر على مجموعة من المبادىء التى تتحدث عن الأصـــول والكليات ، أو القواعـــد والعموميات ، ولكن الميثاق جاء مفصلا ، فيه للتاريخ نصيب ، وللنواحى الاقتصادية نصيب ، وللنواحى السياسية نصيب ، وللنواحى الإنسانية نصيب ، وللنواحى العلمية والأخلاقية نصيب ، وللقيم الروحية والدينية نصيب .

ومما سر النفس وشرح الصدر أن الميثاق أعطى الجوانب الدينية والروحية قسطا ملحوظا من العناية والرعاية ، ونحن بحمد الله أمة متدينة مؤمنة منذ أقدم العصور ، ففى ديارنا ، وعلى منفسح سهولنا ووديانا ـ انبعثت أضواء الموسوية والمسيحية والإسلام ، وتنزلت آيات الهدى من الله رب العالمين ، فكانت لنا نورا وشفاء ولواء ، وكانت لغيرنا وعلى أيدينا هداية وسعادة .

وحتى لو عدنا إلى العصور السحيقة فى القدم ـ حيث لم نعرف شيئا بعد عن النبوات والرسالات ـ لوجدنا ديارنا تعرف الدين وتعتز به ، وتؤمن بالله وتعتمد عليه ، وتوقن بالحياة الآخرة وتعمل لها ، فهؤلاء بعض قدماء المصريين كانوا يؤمنون بإله واحد .

وفى كتاب « الموتى » مايعطينا صوراً تفصيلية رائعة عن معتقداتهم فى الحساب ، وفى الثواب والعقاب ، وفى النعيم والجحيم ، وإذا كان الكهنة قد زعموا إلها أو ربا لكل شأن من شئون الحياة فلعل السبب فى ذلك هو أنهم كانوا على حسب وهمهم يريدون تقريب فكرة الألوهية من الناس ، وظل البصراء منهم يؤمنون بالإله الواحد .

وهذه ترنيمة كان كهان « طيبة » يرددونها كل صباح فى معبد « آمون » ، وهى تنطق بعقيدة الألوهية ووحدة الإله :

« الله واحد أحد لا شريك له .
الله واحد ، وقد أبدع مخلوقاته وحده .
الله روح غامضة لا يراها الإنسان ، خفية عن كل شىء .
الله روح الأرواح ، روح مصر المقدسة .
الله هو الله منذ البداية ، هو الله قبل أن يكون شىء .
هو سيد المخلوقات ، وأبو الجميع ، هو الإله الدائم .
الله هو الموجود الخالد الذى لا يفنى ، لا بداية له ولا نهاية .
الله لم تكن له بداية ، وليس له نهاية ، وسيظل كذلك على الدوام .

الله خفى ، لا يعرف إنسان شكله ولا شبهه .
لا تعلم الآلهة مداه ، ولا الناس .
الله هو الحق ، ويحيا على الحق ، إنه الملك الحق .
الله هو الحياة ، ولا حياة للناس بدونه ، هو البداية ، هو الواحد الأحد » .

* * *

وأساس الدين وعماده هو الإيمان . ولقد كرر الميثاق ذكر الإيمان .

فهو فى الباب الأول منه يقول : « صباح اليوم الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ رفع الشعب المصرى رأسه بالإيمان والعزة » .

وفى الباب الثالث منه يخبرنا بأن هذا الشعب فيه « الإيمان الدينى الأصيل » .

ويأتى « تقرير الميثاق » الذى يعد مع الميثاق كلا متكاملا : « فإنهما إذ يصدران عن إرادة الشعب ممثلا فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية – يعدان تعبيرا عن إرادة واحدة ، مما يرتب لما تضمناه من مبادىء وأسس آثارا واحدة » .

يأتى التقرير ليزيد الإيمان تقديرا وتنويها ، فهو يقول عن الشعب المصرى إنه « وجد قيادته المؤمنة الصادقة » فيصف القيادة بالإيمان ، ويقول عنها أيضا : « إنهم قادة جيل عرفوا ربهم وآمنوا به » .

ويصف الشعب نفسه بصفة الإيمان عندما يعبر عن إرادته فيقول : « إرادة الشعب المؤمن » .

ويصف الثورة بالإيمان فيقول : « لقد كانت ثورة الشعب منذ مطلع فجرها تملك من قوة الإيمان بالله والثقة بالنفس ماثبت خطاها على الطريق الوعر إلى الأهداف السامية » .

بل يقرر أن الإيمان لدى الشعوب المغلوبة على أمرها هو الذى يعينها على مقاومة العدوان والطغيان ، فيقول عن شعبنا : « وأثبت الشعب البطل أن الشعوب الصغيرة المؤمنة يمكنها أن تواجه قوى البغى والطغيان ، وأن تنتصر عليها » .

ولا شك أن أعلى درجة للإيمان هى درجة الإيمان بالله بارىء الكون ومبدع الحياة ، لأن الإيمان بالله رأس لكل نوع من أنواع الإيمان السليم ، وعن الإيمان بالله ينبثق كل مبدأ من مبادىء الحق ، وكل مثل من مثل الخير ، لأن الله تبارك وتعالى مصدر كل جلال ، وعنوان كل كمال ، ومنبع كل جمال ، وهو فوق كل شىء ، والمسيطر على كل أمر .

يقول القرآن فى تصوير عظمته :

« اللهُ لاَ إله إلاَّ هُو الْحَىُّ الْقَيُّومُ[1] لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ[2] ، لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الْأَرْض ، مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

(١) الدائم القيام بتدبير شئون خلقه .

(٢) السنة : (بكسر السين) فتور يسبق النوم .

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، وَلاَ يَئُودُهُ[1] حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ[2] » .

ويقول الإمام على فى صفته :

« هو أول كل شىء ووليه ، وكل شىء خاشع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع إليه ، وكل شىء مستكين له .

خشعت له الأصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام ، وانحسرت دونه الأبصار ، لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجل شأنه ، وأعظم سلطانه . تسبح له السموات العلا ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة ، والحول والقوة ، يقضى بعلم ، ويعفو بعلم ، قوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة ، المطلع على كل خفية ، المحصى كل سريرة .

يعلم ما تكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور ، الرحيم بخلقه ، الرءوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ،

---

(١) لا يئوده : لا يثقله ولا يعجزه .

(٢) سورة البقرة – ٢٥٥ .

ومن سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه ، ومن مات فإليه مصيره » .

ولذلك نجد « تقرير الميثاق » يقول :

« لقد آمن الشعب أن الله أكبر من كل شىء ، ومن كل قوة تحاول أن تقف فى طريق إرادته فى الحرية والكرامة الإنسانية ، وكان الشعب فى تصديه لكل هذه القوى ، ونضاله فى سبيل استخلاص حقه فى الحياة والحرية — متيقنا من نصر الله تعالى الذى قال :

« وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[1] »

وليس ذلك على الشعب بجديد ، فقد تمكنت الأمة العربية بعد انتشار الإسلام ، وبقوة الإيمان أن تصل إلى الذروة على هدى من رسالته ومبادئه » .

وهذا هو الميثاق يتحدث عن « العمل الوطنى العظيم الذى تمكن الشعب المصرى من إنجازه بالثورة الشاملة ذات الاتجاهات المتعددة » ، فيقرر فى الباب الأول منه أن هذا العمل العظيم تحقق — خلال المراحل المتتابعة — بفضل عدة ضمانات تمكن الشعب من توفيرها .

ومنها إرادة التغيير الثورى ، والطليعة الثورية ، والوعى العميق بالتاريخ ، والفكر المفتوح لكل التجارب الإنسانية .

---

(١) سورة الروم ، آية ٤٧ .

ومنها : « إيمان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى إلى الإنسانية فى كل زمان ومكان » .

ولم يكتف الميثاق بأن يصور أثر الإيمان البليغ فيما تتعلق بتحقيق مطامح النضال فى الماضى ، بل أكد أن هذا الإيمان هو الذى يجعل الشعب ينجح فى مراحل كفاحه الحاضرة والمستقبلة من أجل وطنه و مجتمعه وحياته وسعادته ، فهو يقول فى الباب العاشر :

« إن شعبنا يملك من إيمانه بالله ، وإيمانه بنفسه – مايمكنه من فرض إرادته على الحياة ، ليصوغها من جديد وفق أمانيه » .

وهذا الإيمان بالله تعالى هو الذى يصنع الأعاجيب حقا ، فهو الذى ينفخ فى صدر الإنسان من روح ربه ، فإذا قوته تتضاعف ، وإذا عزيمته تمضى ، وإذا همته تعلو ، وإذا يقينه بالنصر يرسخ ، لأنه حين يتشبع بهذا الإيمان الإلهى لا يقتصر اعتماده على مال يأتى ويذهب ، ولا على سلاح مادى قد يفوز وقد يفشل ، ولا على أسباب حسية قد تعاون وقد تخون .

ولكنه مع تحصنه بالقوى المادية واستعداده بالأسباب الحسية التى لابد منها ، يتدرع بقوة القوى ، وسلاح الأسلحة ، وهو الإيمان الذى يجعل صاحبه موقنا بأنه موصول الأسباب بالله عز وجل ، مرتبط بجاه وعلاه .

والله تعالى هو مصدر كل قوة وكل قدرة ، والإنسان يستمد من هذا المصدر بقدر إيمانه ويقينه ، والقرآن يقول :

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ[1] »
ويقول : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »[2]
ويقول : « وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[3] » . ويقول :
« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[4] » .

وكأن الميثاق قد أراد أن يقيم الدليل من التاريخ على أن الإيمان الدينى العميق الأصيل فى نفوس هذه الأمة كان الشعلة التى تنير طريق النضال أمام الشعب ، وكان الحافز القوى الذى يحفزها إلى الحرص على العزة والفرار من الذل ، وكان الدافع الحثيث الذى دفعها إلى صيانة مبادىء الحق والعدل والخير وتراث الإنسانية السامى ، فإذا الميثاق فى الباب الثالث يخبرنا بأن مصر المؤمنة بالله تعالى كانت منذ القدم تؤثر فيمن حولها وفيما حولها ، لا بكونها أمة ودولة فقط ، بل بمقوماتها الدينية والروحية الحاثة على مواقف الصلاح والإصلاح .

فيقول الميثاق : « وكان الفتح الإسلامى ضوءا أبرز هذه الحقيقة وأنار معالمها ، وصنع لها ثوبا جديدا من الفكر والوجدان الروحى .

---

(١) سورة الحج ، آية ٤٠ .
(٢) سورة محمد ، آية ٧ .
(٣) سورة الصافات ، آية ١٧٣ .
(٤) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

وفى إطار التاريخ الإسلامى ، وعلى هدى من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قام الشعب المصرى بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة والإنسانية » .

ومعنى هذا فى إجمال أن هذا الشعب المؤمن قد استطاع خلال تاريخه المجيد ، وفى ضوء عقيدته الإسلامية أن يقوم بواجبات إنسانية ضخمة ، وأن يسهم إسهاما عمليا واسع المدى فى التقدم بالحضارة البشرية والكرامة الإنسانية ، ويخطو بهما خطوات فسيحة إلى الأمام .

ومن واجبنا هنا أن نتذكر أن هذا الهدى الإصلاحى الرائع الذى خلفه لنا المصلح الأكبر رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ممثلا فى دين الله المجيد ودعوة القرآن الكريم ، ما زالت كنوزه تفيض بالتوجيه والإرشاد ، وما زال هذا الهدى صالحا كل الصلاح ليكون المنبع الطهور الفياض الذى يمد الحياة والأحياء دائما بمبادىء العدل والحق والخير ، ويقود البشرية — إذا استجابت له ، واستضاءت بنوره ، وحرصت على تعاليمه ، وفهمته فى بصر وبصيرة — إلى طريق السعادة والهناء . والقرآن يقول :

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [1] » .

* * *

(١) سورة المائدة ، آية ١٥ ، ١٦ .

وينتقل الميثاق من التعميم فى الحديث وفى الدليل إلى لون من التخصيص والتحديد ، فيذكر طائفة من الشواهد التاريخية المحددة التى تدل على أن قوة الإيمان الدينى فى الأمة كانت الدرع الواقية لها فى الأزمات ، وكانت السلاح الماضى فى يدها خلال المعارك التى خاضتها .

ومن هذه الشواهد ما قامت به الأمة من دحر للحملات الصليبية الأوربية الاستعمارية ، التى أساءت استغلال الدين ، وسترت مطامعها الطائشة وراء ستائر الدين .

ثم ما قامت به الأمة العربية من قضاء على الوباء المهلك الذى تبدى فى حملات « التتار » المخربة على الشرق العربى الإسلامى .

ثم ما قامت به الأمة المؤمنة من مقاومة موصولة وصادقة لاستغلال المهازيل من سلاطين العثمانيين وأتباعهم للدين ولثوب الخلافة الإسلامية المهيب .

ها هو ذا الميثاق يحدثنا فى الباب الثالث منه عن مصر الإسلامية التى تحملت مسئوليات حاسمة ، نهض بها شعبها المؤمن فى بسالة منقطعة النظير ، فهذا الشعب « كان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أول موجات الاستعمار الأوربى التى جاءت متسترة وراء صليب المسيح ، وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم .

وكان قد تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى رد غزوات التتار الذين اجتاحوا سهول الشرق ، واجتازوا جباله حاملين الخراب معهم والدمار .

ثم كان قد تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث العربى الحضارى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء »

وقد أكد « تقرير الميثاق » فى فصل « الوحدة العربية » هذا فقال : « وإن شعب مصر العربى ، فى إطار التاريخ الإسلامى ، وعلى هـدى من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم — قد قام بدوره الحاسم دفاعا عن الحضارة والإنسانية ، وتحمل نصيبا كبيرا من المسئولية المادية والعسكرية فى صد أولى موجات الاستعمار الأوربى فى العهد الصليبى ، وفى رد غزوات التتار ، كما شارك مشاركة خالدة الأثر فى المسئولية الفكرية والثقافية من أجل حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة » .

* * *

ولكى ندرك خطر هذه الأحداث التاريخية يجب علينا أن نتذكر أن الحملات الصليبية أقبلت على الشرق الإسلامى وهى تتنزى غيظا ، وتمتلىء حقدا . وتفيض طمعا ، وقد استولت على أكثر البلاد الإسلامية ، واحتلت بيت المقدس ، ولم تستطع الكتائب المدافعة فى الشام أن تصد هذا الوباء الصليبى الأوربى العضال .

ولكن الله جعل الإنقاذ على يد مصر . وقيض للموقف العصيب البطل المؤمن صلاح الدين الأيوبى الذى دحر

الصليبيين ، وحرر بلاد العروبة والإسلام ، واستطاع هو ومن معه من المجاهدين أن يثبتوا فى معركة (حطين) أن الإيمان الذى يعمر قلوب الجنود يجعلها تقبل على مواطن الجهاد والاستشهاد ، وكأنها مقبلة على يوم عرس أو ليلة زفاف .

* * *

وأما وباء « التتار » فقد اجتاح من قبل أجزاء الدولة العباسية ، وجعلها قاعا صفصفا من التخريب والتدمير ، واحتل « التتار » بقيادة زعيمهم « هولاكو » بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ، وأزهقوا روح الخلافة العباسية ، ثم احتلوا بلاد الشام ، وقاربوا حدود مصر .

وكان يحكم مصر يومئذ الملك المظفر المسلم « قطز » ، فأرسل إليه « هولاكو » كتابا يهدد فيه ويتوعد ، ويطلب منه المبادرة إلى التسليم والمسارعة بالخضوع .

وهنا ثار الملك المظفر ، وأبى له دينه وإيمانه وحريته أن يقبل ذلك التهديد ، وأعلن الملك الجهاد ، وقاد الجيش بنفسه ، ومعه الأمير « بيبرس » .

وهناك فى فلسطين ، وفى « عين جالوت » ، وفى رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، دارت المعركة بين الباغين والمجاهدين ، وكانت الفاصلة ، إذ جعل الله تعالى كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

وهذا هو « المقريزى » المؤرخ المشهور يقول عن المعركة العصيبة :

« فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتار ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتار إلى الجبل .

وعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان ، وانتفض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه » .

وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره ، وقُتل « كتبغا » مقدم التتار ، وانهزم باقيهم ، وأبلى الأمير « بيبرس » أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان ، واستمر العسكر فى أثر التتار إلى قرب بيسان ، فرجع التتار ، وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول(١) ، فهزمهم الله ، وقُتل أكابرهم وعدة منهم .

وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديدا ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول :

« وا إسلاماه ! » ثلاث مرات .. « يا الله ، انصر عبدك قطز على التتار »

فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ، ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم » ...

---

(١) أى جمعوا جموعا أكبر ونظموها .

باى حافز دافع هؤلاء ؟ وبأى قوة ثبتت هذه القلة أمام هذه الكثرة الهائلة ذات السلاح والعتاد ؟

إنه حافز الإيمان وقوة اليقين :

« كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [1] » .

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٩ .

الأزهر حصن الإسلام

ومما يتصل بملامح الإيمان فى الميثاق ، وبالشواهد التاريخية الدالة على أن الإيمان الدينى يصنع الأعاجيب ، ويحقق الكثير من الأهداف والآمال ـ أن الميثاق تحدث حديثا كريما عن معقل الإسلام الحنيف ، وحصن لغة القرآن الكريم ، وهو الجامع الأزهر الشريف الذى قضى أكثر من ألف عام وهو يخدم عناصر الإيمان ، ويبث رسالة الدين ، ويحفظ لغة العرب التى نزل بها أهدى قانون ، وأعظم مرشد ، وهو القرآن المجيد .

فقال الميثاق أولا فى الباب الثالث عن الشعب وإفادته برسالة الجامع الأزهر الشريف فى كسب معارك ينهض الكسب فيها على حوافز فى طليعتها حافز الإيمان :

« ثم كان ـ أى الشعب ـ قد تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث العربى الحضارى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت التى فرضتها الخلافة العثمانية استعمارا ورجعية باسم الدين ، والدين منها براء ! »

وعاد الميثاق ليشير إلى الواجب الروحى التاريخى الذى قام به الجامع الأزهر الشريف ، فأيقظ به روح الشعب وإيمانه ، فقال :

« ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت ـ

كما يقول بعض المؤرخين ـ فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر الشريف يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة ، والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الإيمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب ، وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد » .

* * *

وإذا كانت هذه إشارات صريحة من الميثاق إلى الجامع الأزهر الشريف الذى يبث فى الأمة روح الإيمان ورسالة اليقين منذ ألف عام ، فإن الميثاق قد تضمن إشارات أخرى فيها تلميح ورمز إلى مكانة هذا الحصن الوطيد الذى يرمز إلى الإيمان والدين .

فى الباب الثالث يتحدث الميثاق عن الطاقة التى أمدت الشعب بالحياة والحركة فيقول : « وكانت هذه الطاقة هى العلم الذى حصل عليه آلاف من شباب مصر الرواد ممن أرسلوا أيام الصحوة التى سبقت النكسة من حكم محمد على إلى أوربا ليتمكنوا من العلم الحديث » .

ومعظم الرواد الذين أرسلوا فى طلائع هذه البعثات العلمية كانوا من الجامع الأزهر الشريف ، وإن نسينا بعضهم أو كثيرا منهم ، فلن نستطيع أن ننسى العلم البارز بينهم ، وهو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى قال :

« ليكن الوطن محلا للسعادة المشتركة بيننا ، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع ! » .

* * *

ولقد تحدث الميثاق عن أعلام تألقوا فى مجالات العمل من أجل الوطن والقومية والمجتمع ، وجاهدوا بما استطاعوا فى سبيل الآمال التى سامرت روح الشعب طويلا ، وقال عن هؤلاء الأعلام :

« وليس صدفة أن هذه الزهور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التى لفتت أنظار العناصر المتطلعة إلى التقدم فى المنطقة كلها نحو مصر ، وجعلت منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبراً للفكر العربى كله ، ومسرحا لفنونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة الموهومة » .

ونحن نتطلع إلى هؤلاء الأعلام فنجدهم قد حصنوا أنفسهم بحصانة الإيمان وقوة التدين ، وسند الارتباط بحمى الله عز وجل .

ونستطيع أن نقول بيسر : إن هذه القوى الروحية والمعانى الدينية التى كانت تضىء صدورهم ، وتعمر قلوبهم ، وتسمو بعواطفهم ، كان لها أقوى الآثار فى حفزهم ودفعهم إلى مجالات الكفاح والبطولة ، مما يؤكد أن عنصر الإيمان فى صدر الإنسان عنصر قوى جوهرى مهم ، ييسر أمام صاحبه المصاعب والمشاق .

إن الميثاق يتحدث فى الباب الثالث مثلا عن البطل

الزعيم الثائر أحمد عرابى ، ويقول فيما يقول : « كانت ثورة أحمد عرابى هى قمة رد الفعل الثورى ضد النكسة » . وأحمد عرابى ترنى تربية أزهرية سبقت تدريبه العسكرى ، ونال قسطا ملائما من الثقافة الدينية ، والتوجيه الروحى ، والعلوم الإسلامية .

ولقى عرابى فى كفاحه ما لقى ، وتعب ما تعب ، وجاء عقيبه مصطفى كامل ، كما يقول الميثاق : « لقد سكت أحمد عرابى ، ولكن صوت مصطفى كامل بدأ يجلجل فى آفاق مصر » .

ومصطفى كامل من ناحية ثقافته المدرسية قد تعلم فى المدارس المدنية وفى مدرسة الحقوق ، ولكنه من ناحية ثقافته العامة نال قسطا ملحوظا من الثقافة الدينية ، وكانت له عنايته البادية بالشئون الإسلامية والأخلاقية ، وكان يستعين بالحقائق الدينية والنصوص الإسلامية فى حديثه وكتابته .

بل استطاع فى مرحلة من مراحل كفاحه أن يدرك ما لمنصب « الخلافة الإسلامية » من تأثير عميق فى نفوس المسلمين فى ذلك الوقت ، فأفاد من هذا التأثير فى جذب كثير من الأفراد إلى دعوته الوطنية التى أراد بها تحرير بلاده ، وجمع إخوانه فى الوطن على لواء الحرية والعزة والسيادة ، وإن كان منصب الخلافة نفسه بحاجة فى ذلك الوقت إلى إبعاده عن استغلال العثمانيين له .

ويقول الميثاق إن صوت الشيخ محمد عبده قد ارتفع

ينادى بالإصلاح الدينى ، والشيخ محمد عبده كما هو معروف إمام من أئمة الدين ، وعلم من أعلام الجامع الأزهر الشريف ، وعماد شخصيته هو الصفة الدينية التى كانت أبرز من سواها .

وتحدث الميثاق عن قاسم أمين الذى ارتفع صوته ينادى بتحرير المرأة ، وقد يظن كثيرون أن « قاسم أمين » هنا غير موصول الأسباب بالنواحى الدينية ، وهذا الظن يحتاج إلى نظر ، لأن المطالع لكتابات قاسم أمين فى تحرير المرأة يجد أنه كان يحاول أن يسند كلامه بالنصوص الدينية ، ويؤيد دعوته بالشواهد الإسلامية .

ومن خلف قاسم أمين الداعية الاجتماعى كان يقف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده العالم الأزهرى ، يمد صاحب كتابى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » بالنصوص الدينية التى تؤيد وجهة نظره ، ولذلك لا يسهل علينا أن نقرر أن « قاسم أمين » كان مقطوع الصلة بناحية الدين والقيم الروحية .

ثم يقول الميثاق : « وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة يقود النضال الشعبى العنيد » . وسعد زغلول تلقى صدر تعليمه وثقافته فى الجامع الأزهر الشريف ، حتى ظل ردحا طويلا من حياته يقال له : « الشيخ سعد زغلول » وله كتاب مطبوع فى الفقه الإسلامى جاء على غلافه أنه « تأليف الشيخ سعد زغلول الطالب بالأزهر الشريف » .

* * *

لم نرد بهذه الإشارات أن نصطنع للأزهر الشريف مجداً أو فخراً ، فإن هذه الجامعة الإسلامية الكبرى عريقة فى مجدها ، أصيلة فى فخارها ، ولكننا أردنا أن نتبين أن الرواد الذين قادوا حركات التحرر الشعبى والجهاد الوطنى والقومى كانوا مؤمنين متدينين ، أو كانوا يجدون فى الزاد الدينى مددا يؤيد نفوسهم ، ويؤكد دعوتهم ، ويبارك جهادهم .

وكان هؤلاء الرواد يجدون من عقيدتهم ومبادىء دينهم القوية العزيزة ما يدفعهم إلى إيقاظ الشعب من غفوته ، وتنبيهه إلى حقوقه التى سلبها المستعمر منه ، وإلى حريته التى فطره الله عليها ، فيجب ألا يفرط فيها ، فإن عمر يقول :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » والإمام الشافعى يقول : « إن الله تعالى قد خلقك حرا فكن حرا كما خلقك » .

وهذا هو الميثاق على سبيل المثال يقول فى الباب الثالث عن يقظة الشعب :

« ولقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القوة الدافعة وراء عهد محمد على ، وإذا كان هناك شبه إجماع على أن « محمد على » هو مؤسس الدولة الحديثة فى مصر فإن المأساة هى أن « محمد على » لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر إلا بوصفها نقطة وثوب إلى مطامعه ! » .

ومن حقنا هنا أن نتساءل : من الذين أوقدوا جذوة هذه اليقظة الشعبية . .

إنهم رجال آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى ، إنهم رجال عمرت صدورهم بالعقيدة الدينية السامية . من أمثال عمر مكرم ، ومحمد كريم ، وعبد الله الشرقاوى ، وعبد الرحمن الكواكبى ، وجمال الدين الأفغانى .

وعمر مكرم رجل العقيدة والدين والإيمان والوطنية والكفاح قد جاء عنه فى كتاب « فلسفة الثورة » فى هامش الصفحة العاشرة هذه العبارة :

« كان السيد عمر مكرم أول مصرى فى التاريخ نادى بحق الشعب فى الحرية وفى السيادة ، وكان أول شهرته فى خلال الحملة الفرنسية على مصر ، إذ كان من قواد حركة المقاومة الشعبية التى انتهت بجلاء الفرنسيين ، ثم قاد حركة المقاومة ضد طغيان المماليك والباشا العثمانى .

وكان محمد على فى ذلك الوقت ضابطا لإحدى الفرق العثمانية فى مصر ، فانضم إلى حركة المقاومة الشعبية ، ووثق صلته بالزعيم عمر مكرم ، فانخدع به ورشحه للولاية ، فبايعه الشعب واليا ، وكتب زعماؤه بذلك إلى الخليفة العثمانى فى استنبول ، فأقر الخليفة هذه البيعة مكرها نزولا على إرادة الشعب ، فلما تم لمحمد على ما أراد ، وصار واليا على مصر ، تنكر للشعب ، وخان عهده للزعماء ، ونفى السيد « عمر مكرم » إلى دمياط ثم إلى طنطا ، فظل منفيا حتى مات » .

وعمر مكرم الذى أشاد بذكره كتاب « فلسفة الثورة » هو الذى استطاع أن يستخدم الوازع الدينى فى إثارة الشعب

ضد أحد الطغاة الدخلاء عليه ، وهو « خورشيد » الوالى العثمانى ، واستطاع عمر مكرم أن يجمع الشعب خلفه بهذه القوة الدينية والوطنية ، وحاصروا القلعة حيث اعتصم الطاغية ، وأعلن الشيخ السيد عمر مكرم عزل هذا الطاغية عن الولاية باسم الشعب .

ولكن خورشيد قال قولته الآثمة : « لقد ولانى السلطان ، ولن يعزلنى الفلاحون .. » .

فقال عمر مكرم كلمته المشهورة : « إن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد فى الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » .

ولم يستطع خورشيد أن يقف أمام ثورة الشعب وإيمانه ..

* * *

ونعود إلى كتاب « فلسفة الثورة » لنجده يحدثنا عن ثورتى مصر الأولى والثانية : الثورة العرابيـــة ، وثورة « ٢٣ يولية١٩٥٢ » ، فنجد فى هامش الصفحة الحادية عشرة هذه العبارة :

« فى هذه الفترة التى عاشتها مصر بين الثورتين :

فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . انتشرت الأفكار الحرة ، وبدأ الوعى القومى يتضح ، وكان لآراء السيد عبد الرحمن الكواكبى والسيد جمال الدين الأفغانى ، أثرها فى إيقاظ الوعى ، فآمن الشعب بحقه فى الاستقلال والحرية ، وبدأ يدبر أمره لتحقيق هذين المطلبين ، وكان من زعماء هذه الفترة محمد عبده ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش » .

والكواكبى رجل دين وإيمان . وكذلك قل عن جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، والشيخ عبد العزيز جاويش ....

إن أية معركة كبرى من معارك هذا الشعب المؤمن لم تكن بمعزل عن دينه ويقينه وعقيدته ..

* * *

وبعد الميثاق يأتى تقرير الميثاق ليتحدث عن حصن الدين ومعقل الإسلام : عن الجامع الأزهر الشريف ، فنجده فى باب « الدين والمجتمع » يقول :

« وفى يقيننا أن الأزهر الشريف بما له من تاريخ حافل مجيد ، وفى ظل قانونه الثورى الجديد ـ قادر أبدا على النهوض بهذا الإصلاح الدينى ، وعلى تطوير الثقافة الدينية مرتبطة بالحياة والعلم الحديث حتى تكون العلوم الدينية مستوحاة من منابعها الأصيلة فى عصور الازدهار والقوة ، وبذلك تكون أجهزة الدعوة للدين فى كل مجالات التعليم

والوعظ والإعلام على وعى كامل بروح الدين الحق ووظيفته فى الحياة .

إننا بذلك نتمكن من تثقيف الشعب ثقافة دينية صحيحة ، ومن تثبيت القيم الخالدة النابعة من جوهر الدين ، ونتمكن كذلك من مواصلة رسالتنا المجيدة فى تعريف العالم بالدين الإسلامى على حقيقته ، وفى تقوية الروابط الدينية والروحية التى تربطنا بالشعوب الإسلامية » .

رسالة الدين وضرورته

إن الميثاق يقرر حقيقة جوهرية ومؤكدة حين يقول فى الباب العاشر : « إن شعبنا يعتقد فى رسالة الأديان . وهو يعيش فى المنطقة التى هبطت عليها رسالات السماء » .

نعم فنحن نعرف رسالة الدين وحقيقة التدين منذ أقدم العصور ، وإذا كنا قد شهدنا فى آثار المصريين القدماء وكتبهم ومعتقداتهم ما يؤيد أنهم عرفوا الدين . وألفوا التدين ، وآمنوا بالله .

وإذا كنا قد شهدنا تجلى النزعة الدينية فى حياة « أخناتون » ، ودعوته إلى التوحيد — فإننا فى عهود الرسالات السماوية الواسعة المدى . المعروفة الحدود والتفاصيل ، المبثوثة على أيدى أنبياء ورسل نعرف أدوار حياتهم — نجد بلادنا أيضا مهدا ومستّرادا لهذه الرسالات الإلهية كما سبق أن ذكرنا .

فى بلادنا العربية كان داود . وكان نزول ما أوحى الله إليه من « الزبور » ، وفى بلادنا كان مبعث الموسوية ، وفيها كان ظهور المسيحية ، وفيها كان مشرق الإسلام .

ولحكمة إلهية سامية اختص الله هذه الديار العزيزة العريقة بتلك الرسالات الربانية ، تتنزل من حماه إلى عباده ليهديهم سواء السبيل . وليهدوا الناس بها إلى الصراط المستقيم . فصرنا بذلك الأمة الهادية المرشدة التى حملت أمانة الدعوة . فى آسيا انبثقت رسالة الله الجامعة الباقية ، وفى إفريقية كان انفساحها . وعلى أيدينا نحن العرب كان نشرها أول الأمر .

ونحن – بفضل الله وتوفيقه وباستمساكنا بهديه – الأمة الوسط : الوسط فى مكانها بين الشرق والغرب ، والوسط فى عقيدتها ، فلا غلو فيها ولا انحراف ، والوسط فى سلوكها ، فلا هوان ولا عدوان .

وصدق القرآن الكريم حين يصور أمته العاقلة الفاضلة الراشدة فيقول :

« وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا[1] » .

وقد يسأل سائل فيقول : ولماذا كان الاعتقاد فى الدين منذ القدم ؟ .. ونجيب بأن هذه فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، والتى لا يتنكر الناس لها ولا يكابرون فيها إلا إذا اعتسفوا أو انحرفوا ، وفطرة هذه الأمة – كمجموعة – ظلت سليمة خلال العصور ، وقد يشذ بعض أفرادها ، أو يضلون ، ولكنها كأمة تظل على الطريق رشيدة الخطوات .

وهذا الدين فى الواقع كالضرورة اللازمة أو الغريزة الدائمة . وقبل اليوم أجبت عن سؤال يقول : هل الدين ضرورة ؟ فكان الجواب هو تلك السطور التالية :

هذا سؤال ألقوه ويلقونه ، وسيلقونه من حين إلى حين ، وهناك من يسارعون بالجواب قائلين : ليس الدين بضرورة متابعين فى ذلك ضيقهم بالدين أو جهلهم به ، كما أن هناك متدينين يضيقون بهذا السؤال ، ويرونه عبثاً من القول ، ولا يعنون بالرد أو الجواب . .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٤٣ .

وعندى أنه لابد من الجواب ، ولابد من مواجهة الشبهات بما يزيل ظلامها وقتامها ، وبما يهيىء للحقيقة أمنها وسلامها ، ولابد للإجابة عن هـــذا السؤال من تحديد معنى « الدين » ، وتحديد معنى « الضرورة » .

فما الدين ؟ .. وما الضرورة ؟ ..

ذكرت المعجمات العربية لكلمة الدين معانى كثيرة ، منها : الطاعة ، والقهر ، والحساب ، والعادة ، والجزاء .

« والضرورة » هى الحاجة اللازمة التى يضطر الإنسان إليها ، ولا يستغنى عنها .

وقد عرف علماؤنا الدين بأنه « وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال ، والفلاح فى المآل » . أوهو « وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى الخير فى السلوك والمعاملات » .

والفيلسوف « كانتْ » يقول : « الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث إنها قائمة على أوامر إلهية » .

ونلاحظ أن تعريفات الإسلاميين للدين أدق وأعمق من تعريفات سواهم .

ونستطيع أن نعرِّف الدين بأنه الإيمان بذات إلهية مستحقة للإجلال والطاعة ، مع إظهار هذا الإجلال وهذه الطاعة فى طائفة من العبادات والأعمال ، وهذا الإيمان يقتضى خضوعاً وتعبداً من المعتقد ، وسلطاناً ورعاية من المعبود المعتقد فيه ، فيتحقق العمل ، ويكون الجزاء .

والتدين ـ كما أثبتت الملاحظة وأنتج البحث ـ غريزة

عميقة الجذور فى النفس البشرية ، وما بالذات لا يتخلف ، وإن استتر حيناً أو ضعف ، ولذلك نرى التدين حظا مشاعاً فى الجماعات الإنسانية ، ونصيباً مشتركا بين الأمم الحاضرة والغابرة ، والشعوب البادية والمتحضرة .

ويقرر معجم « لا روس » أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، وأن العناية بالجانب الإلهى نزعة عالمية خالدة للإنسانية ، ولا تذبل غريزة التدين إلا فى فترات الإسراف فى الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد .

كما ينادى « هنرى برجسون » قائلا : قد توجد جماعة بغير علم أو فن أو فلسفة ، ولكن لا توجد جماعة بغير دين ! .

وهذا تقرير من رجل غربى متعمق يدل على أصالة الدين فى جذور النفس البشرية .

ولنرجع إلى التاريخ ، فالماضى يفسر الحاضر والمستقبل ، فقد كان لقدماء المصريين دياناتهم منذ ألوف السنين ، وسجلوا هذه الديانات فى أوراق « البردى » ، وعلى جدران المعابد والمقابر ، وعرفوا الإله الغيبى الأزلى الذى لا تصوره الرسوم ، ولا تحده الحدود .

وكذلك كان عند اليونان والرومان دين وتدين ، وإن اختلطا بالوثنية أو الضلال فى التفكير ، ثم جاءت اليهودية والمسيحية ، وعقبهما الإسلام المتمم الدائم ، وكان لكل من هذه الديانات أتباع وأنصار يعدون بالملايين أو مئات الملايين .

* * *

والإسلام الحنيف يشير إلى أن التدين والإيمان بالله فطرة

أصيلة فى بنى الإنسان ، فالقرآن الكريم يحدثنا أن الله تعالى قد أخذ من ظهور بنى آدم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم . قالوا : بلى شهدنا .

والقرآن يحدثنا عن فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، وهى فطرة الإيمان به والإقرار له ، وقد أثبت الباحثون أن فكرة « الإله الأعظم » عرفت طريقها إلى جميع القبائل ، حتى القبائل الهمجية المتأخرة . والذين تقطعت بهم أسباب الاهتداء إلى طريق التدين الصحيح كانوا لا ينكرون الله ، ولا ينكرون الخضوع له ، لكنهم كانوا يبحثون عن السبيل .

وهذا زيد بن عمرو بن نفيل قبيل الإسلام يقول : « اللهم لو كنت أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه » .. فهو يسائل عن الطريق المستقيم المرسوم ليكون صاحب دين صحيح معلوم .

وحتى الذين عبدوا الأصنام والأحجار والأشجار لم يقفوا فى عبادتها - كما قالوا - عند ظاهر الحس . بل كانوا يتخذونها رموزاً لمعان روحية دينية قد تكون غامضة ، وقد تكون منحرفة ، ولكنها على كل حال لها صلة بالتدين .

وقديما قال عبدة الأصنام من العرب :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيقَرِّبُونَا إِلَى اللَّه زُلْفَى[1] » .

وحتى الذين يقولون بالخضوع للقانون الأخلاقى ، أو لسلطة الضمير - لا يخلون من دين . لأن دينهم هو الخضوع لهذا الرقيب ، وإن كان الأصح والأفضل والأجمل

---

(١) سورة الزمر ، آية ٣ .

هو أن نخضع لخالق هذا الضمير ، الذى يسمع الهمس والنجوى ، ويعلم السر وأخفى :

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1] » ؟

ومن هنا كان الخضوع الدينى أعمق ألوان الخضوع .

ولا يمكن لأى إنسان مفكر عاقل أن يخلو من دين ، لأنه يطالع ببصره ، ويدرك بحسه ، مشاهد هذا الكون العظيم ، فتبهره وتسحره ، ويفكر فيها بعقله ليعللها ، أو يدرك أصلها ، فإذا روحه تحلق به فى آفاق واسعة مرتفعة ، وإذا هو يطرق باب الإيمان بالله تعالى ، ويصل منطقة الخضوع لموجد هذه الحياة .

ومن هنا قال « رينان » الفيلسوف : « يستحيل أن يزول التدين من الوجود » . وكيف يزول ولله تعالى فى كل مشهد دليل وبرهان على أنه الله الواحد ؟ .

* * *

ومن أصالة الفطرة الدينية فى النفس البشرية أن يلجأ منكر الدين أو مهمل التدين إلى ربه ومولاه فى ساعة الضيق ولحظات الشدة ، فحين يستنفد المرء جهده ، ويستخدم سائر وسائله – ولا يصل – يفزع إلى الله يسأله المعونة والإرشاد .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله :

« أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ،

---

(١) سورة الملك ، آية ١٣ ، ١٤ .

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ[1] »

وقوله :

« وإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّار كَفُور[2] »

فلما تقطعت أسباب الغرور والكبرياء والادعاء الكاذب لم يبق إلا الالتجاء إلى الله رب العالمين .

والدين ضرورة لازمة ، لا نستغنى عنها ، ولا نستطيع الانفصال منها ، ولو لم يكن لنا دين لكان من الواجب علينا أن نوجد ذلك الدين ، فكيف وقد تكفل الله تعالى لنا بخير دين ؟ .

الدين ضرورة لازمة حتى يكون رقيباً على الفرد فى حركاته وسكناته وفى خطراته وتصرفاته ، يذكرنا بشرعة الثواب والعقاب :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ[3] » .

وشتان بين رقابة القانون ورقابة الدين ، فرقابة القانون ظاهرية قاصرة ، ورقابة الدين شاملة آسرة .

---

(١) سورة النمل ، آية ٦٢ .

(٢) سورة لقمان ، آية ٣٢ .

(٣) سورة الزلزلة ، آية ٧ ، ٨ .

والدين ضرورة لازمة من أجل المصلحة الجماعية ، فإن الناس لابد لهم أن يعيشوا مجتمعين ، ولا بد لهم من قانون حتى يعيشوا هكذا ، ولابد للقانون من حارس ، ولا تستطاع إقامة حارس مستقل على كل فرد ، فلم يبق إلا الدين ليكون هو ذلك الحارس الأمين .

والدين ضرورة لازمة ، لأنه عزاء وسلوى للنفس البشرية ، فحين يشاهد المرء فى حياته الآلام أو المظالم أو الشقاء ، يكون الدين هو العزاء أو الشفاء ، يذكره بعدالة السماء ، وقهر الجبار ، وصدق الجزاء . وثمرة الصبر والجهاد ، ويحرضه على النضال فى سبيل الحرية والعزة والكرامة والعدالة .

والدين ضرورة لازمة ، لأنه يزع النفس عن الآثام ، ويحملها على فضائل الأعمال ، ويوجد بين المتدينين الأصحاء عواطف الخير والرحمة والتعاون والإخاء ، ومن هنا قال فولتير : « لو لم يكن الله موجودا لوجب على البشر أن يخترعوه ! . » .

ولقد أنكرت الوجودية الدين ، وأنكرت الله تعالى ، فلماذا ؟ .

إنما أنكرته لأن الوجودية ليست مذهباً ، وليست فكرة ، ولكنها مرض ، ومظهر من مظاهر التمرد والشذوذ والضيق بأحداث الحياة .

وماذا كانت نتيجة إنكار الوجودية للدين ؟ .

كانت النتيجة هى هذه الفوضى التى تغزو العالم ، وتجعل

تحلل الوجودية كالأفيون الذى يهلك الأبدان والعقول ، وكان انتشار القلق والسأم والقنوط .

لعلهم يقولون – بل لقد قالوا – إن اتساع العلم يؤدى إلى إنكار الدين ، وكذبوا ، فالأكثرية الساحقة من عباقرة العلماء يقرون بالدين ، ويتدينون ويؤمنون ، ويصارحون بأن سعة الأفق تؤدى إلى الإيمان .

وكلما اتسع مجال البحث العلمى الصادق كشف لنا عن عوالم وعوالم وعوالم لاتزال مخبوءة مستورة ، وما أجل الحق سبحانه وتعالى حين وصف نفسه بأنه « رب العالمين . »

وكلما اتسعت البحوث والكشوف العلمية أظهرتنا على ضآلة علمنا ، وتواضع معارفنا بجوار ما هناك ..

والحقائق الكونية دائماً تبدى لنا بعض ظواهرها وخصائصها ، ولكن أسرارها ومكامنها تهرب من أيدينا وتفر ، وصدق القرآن الكريم إذ يقول :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً[1] » .

وقديماً قال العلامة سقراط : « الشىء الذى لا أزال أعلمه جيداً هو أننى لا أعلم شيئاً ! »

ولا بد من رجعة يقوم بها العلم إلى رحاب الدين والإيمان يوماً من الأيام ، وذلك يكون يوم يستوى البحث العلمى على طريقه الواضح الحقيقى اليقينى المستقيم ، ويوم يستقيم فهم الدين ، ويعتدل تفسير آياته وعرض تعاليمه ، ويومئذ يكون العلماء الطبيعيون أول المؤمنين . ومن واجب علماء

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٥ .

الدين وعلماء الحياة أن يعملوا على تقريب ذلك اليوم الآتى كى لا يطول بالحائرين انتظار ! .

إنه لا حياة بلا دين ، كما أنه لا دين بلا حياة ، والذين يريدون أن يقفوا فى وجه الدين بإلحادهم أو سوء سعيهم لا يجنون إلا على أنفسهم ، لأنهم يقفون فى وجه الطبيعة التى لا تتخلف ، والحق الذى لا يبيد :

« فَتَعَالَىَ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ[1] » ، « وَاللهُ غالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ[2] » .

(١) سورة المؤمنون ، آية ١١٦ .

(٢) سورة يوسف ، آية ٢١ .

الدين في مراحل الكفاح

لو استعرضنا مراحل كفاحنا لوجدنا الدين يقوم مقام الروح لهذا الكفاح ، فى معركتنا مع المغول والتتار ، وفى معاركنا مع الصليبية الأوربية الاستعمارية ، وفى معركتنا الأولى مع الصهيونية – كان الأحرار الأبرار من أبناء هذه الأمة ينطلقون إلى ميدان الكفاح بحافز الإيمان الذى توقده عقيدة الدين فى صدر المؤمن .

وفى معركة بورسعيد كان وازع الدين باديا وظاهراً ، ونحن لا ننسى أبداً تلك الصلاة الحاشدة فى الجامع الأزهر الشريف فى بداية معركة بورسعيد – وكنت خطيب الجمعة يومئذ – واعتلى رئيس الجمهورية منبر الأزهر الشريف بعد الصلاة ، وعبأ قوى الأمة من حمى المسجد الجامع .

وبدأت المعركة ، وكانت آيات الجهاد من القرآن الكريم تتردد فى المذياع ، والأحاديث الدينية المحرضة على الثبات والإقدام تنبعث فى كل صباح ، ولما أردنا أن يكون لنا نشيد نردده فى المعركة ازدان هذا النشيد بنزعة الإيمان ، وكان عنوانه كلمة التكبير « الله أكبر » ، وانطلق النشيد يقول :

الله أكبر ، الله أكبر ..
الله أكبر فوق كيد المعتدى
والله للمظلوم خير مؤيـــد
أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى
بلدى ونور الحق يسطع فى يدى
قولوا معى ، قولـــوا معى :
الله أكبر

وأردنا نشيداً ثانياً ، فإذا نشيد : « أنا النيل مقبرة للغزاة » ، وإذا نزعة الإيمان مع عقيدة الدين تبدو فيه فيقول النشيد :

يد الله فى يـــد مصر قسم
على المعتدين تسوق العـــدم
تدك الطغاة وتحمى الحيـــاة
وترفع للشمس نور العلم !

وأردنا أن يكون هناك نشيد شعبى ، تجرى كلماته العامية على ألسنة العامة من الناس ، فإذا النشيد يمجد « الشهادة » فى سبيل الحق والمبدأ ، وإذا هو يذكرنا بالجنة غاية الشهيد ، وإذا نسمات الدين تهب من ذلك النشيد ، فتقول الأم فيه لولدها :

نادراك لليوم ده يا ولدى تحمينى وتحرس بلـــدى
سافر مع ألف ســـــلامه يوم ما أوفى النـــدر ده عيد
يا شوفك هنـــا بكرامـه يا تروح الجنـــة شهيـــــد
نادراك لليوم ده يا ولـــدى !

ويعود النشيد ليتحدث عن الإيمان بالله ، فيقول :

أنا كلى إيمـــان بالله والموت حق ولا اخشـــاه
لا فى بيتك تهرب منه ولا وسط النـــار تلقاه
سافر واثبت لعـــــداك اثبت والحق معـــــاك
يا تعيش وبـــلادك جنه يا تروح للجنـــه هنـــاك
نادراك لليوم ده يا ولدى

* * *

ولا شك أن « ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ » مرحلة بارزة وملحوظة من مراحل كفاحنا فى تاريخنا الطويل المجيد ،

فهل بعدت هذه المرحلة عن حمى الإيمان ، أو استهانت بقوة الدين ؟

لقد سئلت فى عيد الثورة العاشر أن أقول كلمات عن عنصر الإيمان فى هذه الثورة ، فقلت هذه الكلمات :

من الحقائق البديهية التى لا تحتاج إلى برهنة أو تدليل أننا أمة مؤمنة متدينة . عرفت نزعة التدين منذ أقدم العصور ، ولما جاء الإسلام الحنيف ارتضته ديناً لها ، وعقيدة تحيا عليها ، وترتبط بربها عن طريقها ، وما كادت أضواء الإسلام المتألقة تشرق على هذا الوادى الخصيب — وادى النيل — حتى رأينا هذا الوادى يستجيب لدين الله تعالى أصدق استجابة . ويترك أبناء هذا الوادى لغتهم وعقيدتهم وتقاليدهم عن طواعية واختيار ، ليلتزموا لغة القرآن وعقيدته وآدابه .

ومن المؤكد أن الثورة التى قامت فى وطننا لم تجهل هذه الحقيقة ولم تغفل عنها ، وقد حاولت الإشارة إليها والتعبير عنها والعمل لها ، فى أكثر من مناسبة وموطن . .

ولو رجعنا إلى الصدر من عهد الثورة لوجدنا الطليعة الثورية تأخذ لنفسها من القيم الروحية والنزعة الدينية مدداً يشد أزرها ، ويمهد الطريق أمامها ، حتى رأينا أفراداً من هذه الطليعة يعتلون المنابر فى المساجد الكبرى ، ويمزجون الحديث عن الثورة بالحديث عن الدين ، فيوحى هذا المزج بأنهم يريدون تأييد القضية القومية بتعاليم العقيدة الدينية .

ورأينا كذلك أن التعليم الدينى يصير إجبارياً فى مدارس الدولة ، حتى كان هذا الإصلاح سبباً فى أن يتطلع العلماء

وأهل الغيرة على الدين والأخلاق إلى التوسع اللازم فى هذا المجال ، وهو أن يصبح تعليم الدين إجبارياً فى جميع مراحل التعليم ، بما فى ذلك المرحلة الجامعية ، حتى يستطيع الشاب فى دراسته الجامعية أن ينال قسطاً من الدراسات الدينية التى يستبين منها أن دينه قد جاء لينظم أمور الدنيا كما ينظم شئون الآخرة ، وأن القرآن الكريم – كما تكلم عن البعث والنشور ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ؛ قد تحدث عن الأخلاق والآداب ، وقد تحدث عن البيوع والمعاملات ، وعن الأسرة والمجتمع ، وعن الدولة والحكومة ، وعن العلاقات الفردية والروابط الإنسانية .

* * *

وفى السنوات الأولى للثورة رأينا زعيمها يقوم برحلات فى البلاد الإسلامية لتقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية وللإفادة من هذه الروابط فى خدمة العالمين العربى والإسلامى ، ومن وراء هذه الرغبة رأينا قائد الثورة يحج أكثر من مرة .

ويقول فى هذه المناسبة فى كتابه « فلسفة الثورة » : « لقد وقفت أمام الكعبة ، وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى : يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، يجب ألا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسيم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه

مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع ولكن عاملين ، مستضعفين لله ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ولكن مؤمنين أن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة » .

* * *

ثم ينتقل الرئيس جمـــال عبد الناصر إلى استعراض الطاقات والإمكانيات الموجودة فى العالم الإسلامى ، من ناحية العدد ، والوحدة فى العقيدة والمشاعر ، والتماثل فى الآلام والآمال ، وأن هذه الطاقات جديرة بأن تحقق تعاوناً عملياً إسلاميا واسع النطاق ، يعود على أهله بالخير والاصلاح ، فيقول :

« حين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى إندونيسيا ، وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى باكستان وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة — حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة أخرج بإحساس كبير

بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لايخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصلية بالطبع ، ولكن يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة ! » .

وفى رمضان سنة ١٣٧٤ (أبريل سنة ١٩٥٥) كان الرئيس يقضى الأيام الأولى من شهر الصوم وهو يتنقل بين مختلف الأقطار من أعماق هذا العالم الإسلامى ، فشاهد بعينيه أثر دعوة الإسلام فى مئات الملايين من قلوب أهله التى أعلن الاستعمار فشله وعجزه عن تحويل قوة إيمانها إلى ضعف ، وعن إحالة فطرتها السليمة الطيبة إلى ما أراده لها المستعمرون من فساد ، فكان من المعانى السامية التى يوحى بها رمضان إلى أهل البصيرة ، ومن بقايا معانى الخير التى تزخر بها قلوب مئات الملايين من المسلمين – أن أذاع قائد الثورة بياناً أكد فيه أن صاحب « فلسفة الثورة » يعرف مالقوة العقيدة من تأثير وأثر ، وكان مما قاله هذه العبارة :

« رحمة الله التى وسعت كل شىء قضت ولا راد لقضائها أن تهدى هذا العالم الضال ، وترده إلى الهداية والاستقرار ، فاختارت محمدا العربى اليتيم الفقير الناشىء فى جوف الصحراء ، ليكون النبى الملهم والرسول الموحى إليه ، ليرد البشرية إلى الإسلام والطمأنينة ، وإلى التراحم والتعاون والإيمان واليقين .

وكانت رسالة من أشق الرسالات وأخطرها فى هذا الجو العاصف الذى كان يجتاح العالم حين ذاك وهذا التخلف المزرى الذى اتسم به البشر آن ذاك ، ولكن الخلق العظيم الذى تخلق به الرسول الكريم ، والصبر الجميل

الذى تحلى به طوال حياته ، والقوة الخارقة فى الإعداد والتنظيم ، وما كان يمتاز به من بلاغة ومنطق سديدين ، كل أولئك مكن لرسالته وأصل لدعوته . فآمنت به هذه الملايين من البشر إيماناً زاخراً لا يخبو ولا يفتر .

ولقد استطاع الرسول الكريم أن يجعل دعوته مثلا لكل الدعوات ، ومنارا لمن أتى بعده من المصلحين ، فقد كان خاتم الأنبياء . وآخر الموحى إليهم من المرسلين ، فجعل من حياته دستوراً للحاكمين ، ومن سيرته نوراً يهتدى به الأحياء على مر الأجيال والأعوام » .

* * *

وتكون فى عهده الثورة « المؤتمر الإسلامى » بغية أن يعمل لخير المسلمين ، واتسع نطاق البعوث الدينية إلى مختلف البلاد الإسلامية ، وعرفت وزارة الأوقاف ألواناً من الخدمة العلمية للإسلام ، فأنشىء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى شرع فى وضع تفسير للقرآن الكريم يطبع ويترجم ، وجمع المختار من السنة النبوية ليطبع ويترجم ، إلى غير ذلك من أعمال هذا المجلس .

وتلفتت الثورة إلى الجامع الأزهر الشريف حصن العروبة والإسلام ، فتذكرت ماضيه ، وأملت حاضره ، وتطلعت إلى غده ، وفى أواخر سنة ١٩٥٤ م زار قائد الثورة الجامع الأزهر المعمور فى احتفال أقامه الأزهر الشريف ، وفى هذا الحفل المشهود قال قائد الثورة عن الأزهر الشريف حصن الإسلام :

« ولا يسعنى إلا أن أذكر لهذا الأزهر الشريف جهاده

على مر السنين ؛ فقد حمل الأزهر دائماً الرسالة ، ولم يتخل مطلقاً عن الأمانة ، وكافح كفاحاً مريراً فى سبيل الحصول على أهداف الوطن ، وقاسى رجاله وعذبوا وقتلوا وشردوا واقتحم المحتلون الأزهر ، فلم يتوان عن المطالبة بحقوق الوطن .

واستمر الأزهر يحمل الرسالة حتى سلمها للجيش ، وإلى عرابى الذى قام متسلحاً بروح الأزهـــر المعنوية إلى جانب القوات المادية يطالب بحقوق البلاد .

وعندما وطئت أقدام المستعمر أرض مصر حاول بكل قواته أن يقضى على رسالة الأزهر ، كما حاول القضاء على الجيش وقوته ورسالته ، وبرغم هذا استمر الأزهر على مر السنين يكافح ؛ ففى ثورة سنة ١٩١٩ حمل الأزهر العلم ، وقام بأداء الرسالة والأمانة مرة أخرى » .

* * *

وفى موطن آخر قلت هذه الكلمات :

إن ثورة ٢٣ يوليو ثورة مؤمنة ؛ فقد كان قيام الثورة فى ذاته تصحيحاً لأوضاع مختلفة لا يرتضيها الدين ، وكانت الثورة بمثابة التمهيد لإقامة دعائم نرتجيها ويرتضيها هدى الله تعالى الذى يقود إلى الحق والعدل .

ولكى نعرف عنصر الإيمان فى ثورتنا نتساءل : هل كانت الأوضاع القائمة قبل الثورة تتفق والدين ؟

هل كان الاحتلال ، والاستغلال ، والاحتكار ،

وسيطرة رأس المال ، ومهازل الحزبية – مما ترضى عنه شريعة العدل شريعة الله ؟

هل كانت هذه الشريعة العظمى ترضى عن سلب الحقوق ، وامتصاص العروق ، وهضم الأقوياء لجانب الضعفاء ، وتحكم الأغنياء فى الفقراء ؟

الجواب بطبيعة الحال : كلا ! .

ولقد حدثنا المحدثون عن الطليعة الثورية التى انطلقت فى فجر الثورة تفتح بابها ، وتبدأ طريقها ، فقالوا لنا : إن هذه الطليعة تمثلت فى « حملة المصاحف » الذين حملوا على صدورهم كتاب ربهم المجيد ، وكأنهم أرادوا منه أن يضىء لهم ظلمات السبيل ، ويهديهم إلى مجال الإصلاح .

وحينما وضع الشعب الثائر دستور سنة ١٩٥٦ حفظ للعقيدة والدين حقهما من الرعاية والعناية ، فإذا المادة الثالثة منه تقول : « الإسلام دين الدولة ، واللغة العربية لغتها الرسمية » .

وإذا المادة الخامسة منه تقول : « الأسرة أساس المجتمع ، قوامها الدين ، والأخلاق ، والوطنية » .

وإذا المادة التاسعة والأربعون منه تقول فيما تقول : « وتهتم الدولة خاصة بنمو الشباب البدنى والعقلى والخلقى » .

وإذا المادة الستون منه تقول : « مراعاة النظام واحترام الآداب الاجتماعية العامة واجب على المصريين » .

وبجوار عناية الثورة بالأزهر الشريف – حصن الإسلام والعروبة – رأينا قائد الثورة يقوم برحلات موصولة وفسيحة المدى فى السنوات الأولى للثورة فى بلاد إسلامية كثيرة ، محاولا

تقوية الأواصر التى تربط المسلمين الموجودين فى شتى بقاع العالم ..

ولقد حج القائد بيت الله الحرام ليؤكد هذه الروابط من جهة ، وليتباحث مع أقطاب الإسلام فيما يفيد الإسلام والمسلمين من جهة أخرى ، وفى صيف سنة ١٩٥٤ حج الرئيس جمال عبد الناصر ، وقام فى « منى » و « جدة » باتصالات ومباحثات مع المسئولين المسلمين الذين حضروا موسم الحج .

واتفق معهم على عقد « مؤتمر إسلامى » دائم ، يقوم بإعداد سياسة إسلامية ثابتة بعيدة المدى لرعاية مصالح الشعوب الإسلامية والدفاع عنها ، وتكوين كتلة إسلامية عالمية يكون لها وجود إنسانى يعتد به بين المعسكرين الشرقى والغربى ، تضع سياستها مع الجبهتين فى ضوء مصلحتها ومصلحة شعوبها وحدها .

وكذلك كان من مظاهر عناية الثورة بالناحية الإسلامية أن ضاعفت اهتمامها بالبعوث الإسلامية التى تستقدمها من شتى بلاد المسلمين ؛ ليغترفوا من مناهل العلم فى الجامع الأزهر الشريف الذى يقوم على حفظ الدين ولغة القرآن منذ أكثر من ألف عام .

وزادت هذه البعوث زيادة رائعة ، فصار فيها الآلاف الذين تتعدد لغاتهم وألوانهم ، ولكنهم يتفقون جميعاً فى عقيدة دينية واحدة ، وفى جامعة إسلامية واحدة ، تمدهم بالمعارف الإسلامية التى تزيدهم بصراً بالقيم الفاضلة ، وتعدهم ليكونوا رسل خير وإصلاح ، حينما يعودون لبلادهم .

وقد أنشئت لهذه البعوث مدينة ضخمة هى « مدينة البعوث الإسلامية » ، فنهضت هذه المدينة شاهداً حسيا على مدى العناية بالتربية الدينية ، وعلى مدى الإسهام فى نشر الثقافة الإسلامية بين أرجاء العالم المختلفة .

وكذلك نشأ فى عهد الثورة « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » الذى قام بعدة أعمال جليلة مفيدة ، منها وضع موسوعة كبيرة فى الفقه الإسلامى ومباحثه المتعددة ، وقد سميت هـذه الموسوعة الإسـلامية باسم « موسوعة جمال عبد الناصر » .

ومنها نشر مجلة « منبر الإسلام » فى نطاق واسع ، باللغتين العربية والإنجليزية ، وكذلك نشر رسائل وكتب عن الإسلام بهاتين اللغتين .

ومنها تسجيل القرآن الكريم على « اسطوانات » بقراءة موزونة ملتزمة لأحكام تجويد القرآن الكريم ، وتم بهذه الأسطوانات تكوين « المصحف المرتل » الذى يتردد صوته الآن فى الداخل والخارج .

ومنها تسجيل اسطوانات لتعليم الصـلاة وغيرها من العبادات ... إلخ .

والناحية الدينية فى عهد الثورة تجد من قائدها تأييدا وتنويهاً فى عدة مناسبات ، ولو جمعنا ما قاله عن الإسلام وعن تعاليمه السمحة الكريمة لوجدنا الشىء الكثير .

وإنا لنتذكر على سبيل المثال أنه فى شهر رمضان سنة ١٣٧٤ هـ تحدث عن الإسلام فقال :

« حقاً إن فى الدعوة الإسلامية دروساً وعبراً ، فلم

لا نتخذ منها واعظاً ومرشداً ؟ لم يشق بعضنا عصا الطاعة على بعض ؟ . لم ننساق فى سبيل غير سبيل أهدافنا ومثلنا ؟ لم لا نهتدى بهدى الإسلام عندما نضل الطريق أو تشتبه علينا الأعلام ؟ لم يكون بعضنا حربا على بعض ؟ لم ننساق فى سبيل غير سبيل الأخوة الصادقة والتعبئة المتكاتفة والجماعة المتآزرة ؟ .

ألم تكفنا هذه القرون السوالف التى صرنا فيها إلى حطام ؟ ألم تنل منا العوادى لما كان بيننا من فرقة ؟ ألم نستذل وقد كنا سادة الدنيا وكرامها ؟

أيها العرب ، أيها المسلمون ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، بأن تكونوا يداً على من عاداكم ، مسالمين لمن سالمكم ، ولا تفرقوا ولا تهنوا فأنتم الأعلون ، وليست هذه العبارة كلمات ألفظها من الشفاه ، أو يرددها اللسان ، ولكنها نابعة من قلبى المؤمن إيماناً عميقاً بدعوة الإسلام التى هى دعوة القوة والسلام .

فهل تضعون أيديكم فى يدى ؟ وهل تلبون هذه الدعوة الحارة من قلب مؤمن بالعروبة والإسلام ؟ ولن يكفينى أن بلغت ، وأشهدت الله عـــلى أن بلغت ، ولكنى سأسعى ماحييت بكل مانى من جهد وعزم وإيمان ، لتصبح هذه الدعوة حقيقة لا ريب فيها ، والله على ما أقول شهيد » .

فى حيـاة القـائد

الثورة لها قائد تظهر فيه روحها ، وتتمثل مبادئها ، ولقد كتب كاتبون – ما بين شرقيين وغربيين – عن الجانب الدينى والروحى فى حياة الرئيس جمال عبد الناصر ، وحسبنا هنا أن ننقل مقطوفات سريعة مما كتب هؤلاء أو أذاعوه :

نشأ الرئيس فى بيئة تعرف للدين قدره ، وتحترم تعاليم الشرع الحنيف ، وقد حفظ والده القرآن الكريم ، وأنشأ جده فى بلده مسجداً ، وبنى فيه «كتاباً» لتحفيظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة ، وكان ذلك سنة ١٨٩٨ م .

وشب جمال عبد الناصر وهو يؤمن بأن إرادة الله فوق كل إرادة ، ورووا عنه أنه قال لوالده وهو فى سن العاشرة : لماذا نأكل اللحم والفلاحون الذين يرعون الماشية ويربونها لايأكلونه ؟ .

فأجاب والده : هكذا أرادوا لنا يا ولدى !

فقال الابن : من للذين أرادوا ؟ وهل هناك من تعلو إرادتهم على إرادة الله الذى خلقنا سواسية ؟ .

والرئيس يستشهد فى رسائله منذ بدء شبابه بالآيات القرآنية .

وروى أنه لما تقدم إلى الكلية الحربية وسئل عمن سيتوسط له فى دخولها ، قال : «واسطتى ربنا» .

ويقول جمال عبد الناصر عن ليلة الثورة : « لقد تأكد لى من تطورات الأمور أن عناية الله كانت تلك الليلة معنا » .

والرئيس يؤدى فروضه الدينية ، وقد صام وهو على سفر إلى مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ . وقال عنه الصحفى الأمريكى « جيمس بل » فى عدد أبريل سنة ١٩٥٤ من مجلة « لايف » هذه العبارة :

« إنه شديد الحرص على اتباع النظام نفسه الذى كان ألفه منذ سنوات عندما تخرج فى الكلية الحربية ، وأصبح ضابطاً فى الجيش ؛ فمهما امتد به السهر إلى ما بعد منتصف الليل – وكثيراً ما يمتد حتى الرابعة صباحاً – تراه يصحو فى السادسة صباحاً تماماً فيتوضأ ويصلى الصبح ! » .

وحينما سافر إلى « باندونج » طلب من شيخ الأزهر أن يكتب له آية يرددها عند السفر ، فكتب له قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ[1] »

ما أجمل أن يؤمن القائد ويتدين ، فيكون قدوة بإيمانه وعمله لكل فرد من أفراد الأمة ! وبذلك يفلح الجميع :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[2] » .

---

(١) سورة القصص ، آية ٨٥ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية الأولى .

الدين والحياة

فى الباب السابع من الميثاق جاءت عبـــارة مهمة عن الناحية الدينية ؛ لأنها تحدثت عن حرية العقيدة الدينية ، وعن مكانة القيم الروحية النابعة من الأديان ، وعن عنصر الثورية فى الدين ، وعن واجب علماء الدين ، وعن التوافق بين حقائق الدين وحقائق العـــلم ، وعن سوء التفسير للدين ، وسوء الاستغلال له ، وعن تأكيد الدين لحق الإنسان فى الحياة والكرامة .

تقول العبارة :

« إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة ، إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان ، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان ، وعلى منحه طاقات لاحدود لها من أجل الخير والحق والمحبة .

إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته .

إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصـــادم مع حقائق الحياة ، وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ـ ضـــد طبيعته وروحه ـ لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصـــادم مع حكمته الإلهية السامية .

لقد كانت جميع الأديان ذات رسالة تقدمية ، ولكن الرجعية التى أرادت احتكار خيرات الأرض لصالحها وحدها ، أقدمت على جريمة ستر مطامعها بالدين ، وراحت تلتمس فيه ما يتعارض مع روحه ذاتها لكى توقف تيار التقدم .

إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحياة وفى الحرية ، بل إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان .

إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر ، ولا يرضى الدين بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس ، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم !

إن الله جلت قدرته وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساساً للعمل فى الدنيا ، وللحساب فى الآخرة » .

ومن حق الميثاق أن ينص على حرية العقيدة الدينية ؛ لأن هذه العقيدة هى أغلى شىء يعتز به الإنسان ، فإذا لم يتوافر له فيها الحرية والأمن والأمان ، لم تكن عقيدة ، وإنما صارت إكراها وإرهابا .

والقرآن الكريم نفسه يقول :

« لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ[1] » .

ويقول أيضا :

« ادْعُ إِلَىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ،

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[1] » .

ويقول :

« أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[2] » .

ويقول :

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[3] »

ويقول :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ[4] »

ويقول :

« فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[5] »

ونحن فى مجتمعنا نتكون من أكثرية عددية تدين بالإسلام ، وتتبع نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم . ومن أقلية عددية تدين بالمسيحية ، وتنتسب إلى نبيها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، والجميع يشتركون فى الانتساب إلى هذا الوطن والانتفاع بخيراته .

---

(١) سورة النحل ، آية ١٢٥ .
(٢) سورة يونس ، آية ٩٩ .
(٣) سورة البقرة ، آية ٢٧٢ .
(٤) سورة الغاشية ، آية ٢١ و ٢٢ .
(٥) سورة الكهف ، آية ٢٩ .

ومن الواجب والحالة هذه أن يتوافر لكل معتقد فى هذا المجتمع الأمن على عقيدته ، والتمكن من أداء شعائره للدينية فى حدود القانون والنظام العام ، وبحيث يظل لدين الله جل جلاله هيبته وصيانته وكرامته ، فلا يساء استغلال الحرية فى هذا المجال .

ومما لا شك فيه أن هدى الله تعالى يضمن للناس سعادة الحياة وكرامة العيش ، لأن الله تعالى أعلم بعباده ، وهو العليم بما يصلحهم ويقوم شئونهم .

ولو أن الناس أخذوا الدين كما أنزله الله تعالى ، ونفذوه بلا إسراف وبلا انحراف ، ولم يضيفوا إليه من عندهم زيادات أو إضافات – لوجدوا هذا الدين منبعا للقيم الروحية الفاضلة التى تهدى وترشد ، وتضىء وتنير ، والتى تمنح الناس القوى الهائلة التى تملأ عليهم دنياهم بالخير والبركة ، والحق والمحبة ، لأن دين الله الحق مفتاح إلهى لثورة إنسانية إصلاحية تحفظ شرف الإنسان ، وتحرر حسه ونفسه ، وتحقق سعادته وهناءته .

ولذلك كان أهم واجب من واجبات عالم الدين أن يحتفظ بجوهر الدين ، وأن يصوره كما أراد الله تعالى ، وأن يعرضه كما جاء من عنده .

وأعتقد أن واجب المفكرين الدينيين – كما قلت فى إحدى جلسات المؤتمر الوطنى – ينقسم ثلاثة أقسام :

قسم يتعلق بالتفكير الدينى .

وقسم يتعلق بالعلم والفقه .

وقسم يتعلق بالدعوة .

فإذا كنت أطالب المفكر الدينى بأن يحفظ جوهر العقيدة سليما نقيا من الانحراف ، ومن التفسير للهوى أو المصلحة الذاتية ، ومن استغلال الرجعية ، ومن التأويل للغرض والمرض – فإن هذا المفكر الدينى يجب أن ينتقل إلى التقعيد الصحيح لفكرته الدينية على علم أصيل ، وفقه نابع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم يجب أن تنتقل هذه الفكرة وذلك العلم إلى دعوة عملية وقدوة حسنة منه تبشر بالحق والعدل والبر والهداية بين الناس(١) .

* * *

ومن المؤكد كما يقول الميثاق أن جوهر الرسالات الدينية الإلهية لايتصادم مع حقائق الحياة ، لأن الذى صاغ هذا الجوهر هو الخالق البارىء المصور البصير بكل شىء ، الذى أحاط بكل شىء علما .

وحينما نفهم الدين على وجهه ونفهم حقائق الحياة على وجهها – لا نجد تصادما ولا تعارضا ، بل نجد تلاقيا وتوافقا ؛ فالدين الصحيح يؤيد العلم الصحيح ، وما هذه الاختلافات الظاهرية بين الدين والعلم إلا مظاهر ناشئة من قصر الفهم للدين ، أو من قصر البحث فى العلم .

والفيلسوف « هرشل » من فلاسفة القرن الثامن عشر يقول : « إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت الشواهد وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة ، وعلماء

---

(١) انظر رسالة دعوة الإسلام ، رقم ١٩ ص ٢٧ بتاريخ يوليه عام ١٩٦٢ .

الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم إعلاء لكلمة الخالق » .

ويروى « سقراط » عن « أفلاطون » قوله : « هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذى لم يترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهة إلى غاية أعلى منها ، وهكذا حتى يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة » . يقصد بها الله سبحانه وتعالى .

ويقول « سبنسر » : « إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك ، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنها » .

ويقول « كميل فلامريون » فى كتاب (الله فى الطبيعة) هذه العبارة : « إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات فإن الله يتجلى لنا كروح دائم « موجود » فى حقيقة كل شيء » .

وهناك غير هذه الكلمات شهادات وتقريرات تؤكد ما ذكره الميثاق من أن جوهر الدين الإلهى لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ـ ضد طبيعته وروحه ـ لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية .

وقد عنى « تقرير الميثاق » بتحليل هذه الناحية ، وإلقاء أضواء عليها ، فجاءت فيه هذه العبارة :

« إذا كان الاستعمار والرجعية قد استغلا اسم الدين فى

بعض الأوقات لتضليل الشعب العربى وسلب حقوقه المشروعة فى الحياة الكريمة الحرة ـ فإن هذا الشعب قد أثبت دائما قدرته على النضال الثورى معتمدا على إيمانه الدينى الأصيل .

كما ذكر الميثاق أن الحملة الفرنسية حينما جاءت الى مصر وجدت الأزهر الشريف يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت أن الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخلافة ، والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر حقيقى تصادما بين الإيمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين إرادة الحياة التى ترفض الاستبداد .

إن الاستعمار العثمانى لم يأل جهدا فى استغلال اسم الدين للوقوف ضد مصالح الشعب وخيانته أثناء كفاحه .

ومن ذلك أن الخليفة العثمانى أصدر بيانا يحكم فيه على البطل أحمد عرابى بالخيانة والخروج على الإسلام ، وهو يقود جموع الشعب فى قتال ضد الاستعمار البريطانى ، فقد اعتبر ذلك البيان « عرابيا » عاصيا للسلطان والخليفة الأعظم ، ومخالفا للشريعة الإسلامية الغراء ، ومضادا لها بالكلية ! .

وهكذا استغل الخليفة العثمانى اسم الدين لهزيمة شعب مصر بقيادة عرابى فى معركته الباسلة ضد الاستعمار البريطانى ، وضد خيانة الخديو الأجنبى العميل !

إن الإيمان الدينى السليم لا يتعارض مع حركة الفكر الإنسانى ، ولا مع جهاد البشر نحو حياة أفضل ، بل إن

العكس هو الصحيح ، فالدين يدفع الإنسان إلى التفكير الحر ، ويصد عن الجمود الفكرى والتعصب ، وقد قال الله تعالى :

(فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ[1]) .

وقد حض الدين على متابعة التقدم العلمى ، ورفع من شأن العلم ، فقد قال تعالى :

(يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ[2]) .

لذلك كان منطقيا أن إيماننا السليم بالدين يجعلنا نرفض التعصب والجمود الفكرى ، ويدفعنا إلى ملاحقة التطور البشرى نحو مجتمع أفضل .

ومن أجل ذلك قال الميثاق : « إن الاقناع الحر هو القاعدة الصلبة للإيمان ، والإيمان بغير الحرية هو التعصب ، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ، ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر فى كل مكان .

وإن أية محاولة لتعطيل تجلية جوهر الدين المتألق ،

---

(١) سورة الزمر ، آية ١٧ و ١٨ .

(٢) سورة المجادلة ، آية ١١ .

وكشف العظمة الحقيقة للأديان ، باعتبارها ثورات إنسانية استهدفت شرف الإنسان وتقدمه وسعادته – لهى جريمة فى حق الدين ، وفى حق الإنسانية ، وفى حق الشعب الذى يريد أن يتبين طريق حياته فى المستقبل على هدى من رسالات الله العلى القدير .

والتاريخ حافل بأمثلة لجرائم ارتكبها ضد الشعب بعض ضعاف النفوس ، بإصدار فتاوى وتفسيرات باسم الدين ، تحرم الشعب حقوقه وتقف فى طريق تقدمه .

لقد قاوم شعبنا فى الماضى محاولات الاستغلال والرجعية الفكرية باسم الدين ، وقد أبرز الميثاق نضال بعض أبناء الشعب الذين قادوا حملات الإصلاح الدينى ، من أمثال الشيخ محمد عبده أحد الرواد المناضلين ضد الطغيان والاستبداد .

ولذلك فلابد أن نحذر محاولات الاحتكار والاستغلال والرجعية الفكرية باسم الدين ، وهى التى عانينا منها فى الماضى ، وينبغى ألا نسمح لهذه المحاولات أن تقيد الفكر الدينى الصحيح ، أو تقف فى طريق تقدمنا .

وذلك ما عناه الميثاق حين قال : « إن جوهر الرسالات الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وإنما ينتج التصادم فى بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين – ضد طبيعته وروحه – لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الإلهية السامية » .

* * *

والدين كما يشير الميثاق لايرضى بغير العدالة الاجتماعية بديلا ، لأن الله تبارك وتعالى قد حرم الظلم على نفسه ، وحرمه على عباده ، وهو لايظلم مثقال ذرة ، وهو يعامل عباده بمنتهى العدل ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

والله تبارك وتعالى لا يرضى أبدا أن يحتكر فريق من عباده خيرات الأرض ونعم الحياة وآلاء الله تعالى ، على حين أن الكل عباد الله ، وقد جعلهم شركاء فيما برأه وأحياه .

ولذلك يكون من الجرم والإثم أن يحاول بعض الطغاة أو الظالمين أو المخادعين أن يحتكروا خيرات الأرض لصالحهم وحده دون عباد الله ، ويزداد هؤلاء جرما وإثما حينما يحاولون ستر مطامعهم بالدين ، والدين من الظلم والاحتكار والبغى براء .

إن الدين يؤكد حق الإنسان فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى الكرامة ، وفى العيش الهنيء ؛ وإن الدين يؤكد فى نفس المؤمن العزة وإباء الذل والمسكنة ، وهو يدعو إلى الأخوة والديمقراطية والاشتراكية والتعاون والشورى والوحدة .

ومن هنا كان « تقرير الميثاق » موفقا حين قال :

« لقد سخر الله الكون كله للإنسان ، وطالبه بأن يبحث فى آيات صنعه ، ويفكر فيها ليستعملها لما فيه خير البشرية وسعادتها ، فقد قال الله تعالى :

« وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ

جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1] » .

إن العلم ليس إلا وصفا وبحثا فيما صنع الله تعالى فى آفاق الأرض والسماء ، وتقريرا لما بث فيهما من قوى وخصائص .

إن الدين الحق والعلم الحق هما تصوير متكامل لجوانب الوجود .

إن جوهر الأديان يؤكد حق الإنسان فى الحرية وفى الحياة ؛ وفى هذا يقول الميثاق : « إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان ، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان ، وعلى منحه طاقات لاحدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » .

وإذا كان مفهوم الحرية فى تصورها العام أن يكون لكل مواطن الحرية فى صنع مستقبله ، وفى تحديد مكانه فى المجتمع ، وفى التعبير عن رأيه ، وفى إسهامه الإيجابى فى تقرير أمر وطنه — فإن مفهوم الحرية الاجتماعية فى تصورها السهل أن يكون لكل مواطن حق فى نصيب عادل من ثروة وطنه ، على أساس من الفرص المتكافئة ، وعلى أساس أن الحق مساواة بين الناس .

هذه شريعة العدل ، وهى فى الوقت ذاته شريعة الله .

وفى معنى الحرية : شريعة العدل شريعة الله تقول على لسان عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

---

(١) سورة الجاثية ، آية ١٣ .

وفى معنى العزة : شريعة العدل شريعة الله تقول :

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ[1] » .

وفى معنى الكرامة والتكريم للانسان : شريعة العدل شريعة الله تقول :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ[2] » .

وتقول : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ[3] » .

وفى رفض الذل والمسكنة : شريعة العدل شريعة الله تقول :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا[4] » .

وتقول :

« وَلاَ تَهِنُوا ولاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[5] » .

---

(١) سورة المنافقون ، آية ٨ .
(٢) سورة الإسراء ، آية ٧٠ .
(٣) سورة الحجرات ، آية ١٣ .
(٤) سورة النساء ، آية ٩٧ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ١٣٩ .

وفى معنى الأخوة الإنسانية وعدم التفرقة بين الناس : شريعة العدل شريعة الله تقول :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ[1] » .

وتقول على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الناس سواسية كأسنان المشط » .

وفى معنى الديمقراطية : شريعة العدل شريعة الله تقول :

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ[2] » .

هذا قليل من كثير جاءت به شريعة العدل شريعة الله ، فى معانى الحرية والكرامة والمساواة والإخاء والديمقراطية .

أما فى المقومات المادية لتحقيق هذه المعانى السامية ، وضمانا لعدالة توزيع المال ، وعدم حبسه فى أيد قليلة — فإن شريعة العدل شريعة الله تقول :

« كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ[3] » .

وفى تكريم العمل والدفع إليه : شريعة العدل شريعة الله تقول على لسان الرسول الأمين : « أطيب كسب الرجل عمل يده » .

وفى تكريم العلم ومن يعملون به : شريعة العدل شريعة الله ، تقول :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ[4] »

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١٠ .
(٢) سورة الشورى ، آية ٣٨ .
(٣) سورة الحشر ، آية ٧ .
(٤) سورة الزمر ، آية ٩ .

وفى سبيل اشتراك الناس فى ملكية المرافق العامة : شريعة العدل شريعة الله ، تقول على لسان الرسول الكريم : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء ، والكلأ ، والنار » .

وفى سبيل توفير الزكاة : شريعة العدل شريعة الله تجلت فى قولة أبى بكر الصديق : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه » .

وخرجت الجيوش من المدينة لقتال مانعى الزكاة ، فكانت أول حرب فى التاريخ تقوم بها دولة من أجل حق الفقراء .

وقال عمر فى أواخر حياته وقد رأى المال يتكدس فى أيدى فئة قليلة من الناس: « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء ! » .

وقد تجلت شريعة العدل شريعة الله مرة أخرى عندما فتح الله على الأندلس بالإسلام ، وكان الإقطاع فى أوربا قد وصل إلى درجة بالغة من الظلم والاستبداد واستغلال الفلاحين .

هنالك تحققت ثورة اجتماعية بالغة ، أنقذت الطبقات الدنيا من الناس والعبيد من الظلم والعبودية ، وحررتهم من سيطرة الإقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يتخذون الفلاحين عبيدا لهم وعبيدا للأرض .

وأزالت هذه الثورة الآلام التى كانت ترزح تحتها

البلاد منذ قرون ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدراً للخير والسعادة ، وسببا لازدهار الزراعة فى أرض الأندلس.

ثم فى معنى الوحدة : شريعة العدل شريعة الله تقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وتقول على لسان الرسول الكريم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

تلك هى شريعة العدل شريعة الله !

* * *

وهكذا مضى تقرير الميثاق يكرر قوله : « شريعة العدل شريعة الله » بعد أن ذكرها فى افتتاحية التقرير ، مضى يكررها فى باب « الدين والمجتمع » عند الاستشهاد من القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وأقوال الخلفاء الراشدين ، وعمل المسلمين السابقين – على مبادىء الحياة السامية ، حتى تكررت هذه العبارة فى هذا الباب أكثر من عشر مرات .

وفى كل مرة كانت تحلو ، لأنها تذكر بهدى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! .

* * *

ومن دقائق الاستشهاد بمبادىء الدين على نظام المجتمع الذى ننشده قول الميثاق : « إن أساس الثواب والعقاب فى الدين هو فرصة متكافئة لكل إنسان .

إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء ، يخط فيها أعماله باختياره الحر ، ولا يرضى الدين

بطبقية تورث عقاب الفقر والجهل والمرض لغالبية الناس ، وتحتكر ثواب الخير لقلة منهم .

إن الله جلت حكمته وضع الفرصة المتكافئة أمام البشر أساسا للعمل فى الدنيا ، وللحساب فى الآخرة » .

كأن الميثاق يريد أن يقول : إن ما نهدف إليه من تحقيق الفرص المتكافئة لأبناء الوطن الواحد هو أساس الدين ، وعماد نظرية الحساب ، والقاعدة التى تنهض عليها شرعة الثواب والعقاب .

فشريعة الله تبارك وتعالى تقول لعباده : أنتم جميعا تبدءون من نقطة بدء واحدة ، وليس لكم سوابق قبلها ، فلا لكم ولا عليكم ، وصفحاتكم حينئذ بيضاء خالية ، ثم ينفسح أمامكم الطريق ، وكل منكم وجهده ونشاطه ، وكل منكم وعمله واجتهاده ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[1] » .

وكذلك تكافؤ الفرص فى المجتمع ؛ نحن نحاول أن نذيب الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، وأن نقرب بينها بقدر الإمكان ، فى غير بغى أو ظلم .

ثم نهيىء الفرصة لكل فرد كى يتعلم ويتقوم ، ويتسلح بسلاح العمل والكسب والإنتاج .

---

(١) سورة الزلزلة ، آية ٧ و ٨ .

ثم نفتح الطرق أمام الجميع ، وكل واحد منهم واجتهاده ونشاطه .

نحن مثلا نعطى ابن البواب فرصة التعلم الجامعى ، كما نعطيها ابن مدير الجامعة ، ثم ندعهما لعملهما : فقد يكسل ابن البواب فيفشل فى الجامعة ، ويخرج ليكون بوابا كأبيه ، وحينئذ يكون « ذنبه على جنبه » كما تقول العامة ؛ فقد هيأنا له الفرصة ، ولم يحسن استخدامها ، على حين أحسن استخدامها ابن مدير الجامعة فصار مدير جامعة كأبيه .

وقد ينشط ابن البواب ويواصل ليله بنهاره ، ويجد ويجتهد ، فيكون فى مستقبله مديرا للجامعة ، على حين يكسل ابن مدير الجامعة فيبوء بالخيبة والخسران ، وهكذا .

الأخلاق والطاقات الروحية

كان « شوقى » صادقا حين قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وذلك لأن الأخلاق هى التى تصون صاحبها من الإثم والزلل ، وتحول بينه وبين الخطايا والدنايا ، وتجعله يعاف أن يقف موقفا يعيبه أو يؤخذ عليه ، وتدفعه إلى التصرف الحميد والموقف المجيد .

والأخلاق حين تتكون ، تعتمد أول ما تعتمد على طاقات روحية فى نفس الإنسان وأعماقه ، وهذه الطاقات تجعله يتذكر دائما أنه ليس جسدا فقط ، وليس مادة فحسب ، ولكنه جسم وروح ، وحس ونفس ، وبدن وعقل ، وللروح مطالبها السامية العالية ، كما أن للبدن مطالبه المادية والحسية .

ومن هنا قال الميثاق فى الباب الثامن : « يتعين علينا أن نذكر دائما أن الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من أديانها السماوية ، أو من تراثها الحضارى قادرة على صنع المعجزات .

إن الطاقات الروحية للشعوب تستطيع أن تمنح آمالها الكبرى أعظم القوى الدافعة ، كما أنها تسلحها بدروع من الصبر والشجاعة ، تواجه بهما جميع الاحتمالات ، وتقهر بهما مختلف المصاعب والعقبات .

وإذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة فإن الحوافز الروحية والمعنوية – هى وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا وأشرف الغايات والمقاصد »

وقد لاحظ الميثاق أن العالم بعد ثورته الصناعية الهائلة وبعد نهضته المادية الواسعة ، قد أعطى المادة نصيبا كبيرا من العناية ، لم يوائم بينه وبين النصيب الواجب للناحيتين الروحية والأخلاقية ، حتى صار الناس يتعاملون بأسلوب الدينار والدولار .

وهذا خطر يهدد البشرية فى قيمها العليا ومثلها السامية ، ولذلك حق للميثاق فى الباب السابع أن يقول :

« إن هذا المجتمع الجديد الذى يبنيه الشعب العربى فى مصر على دعائم الكفاية والعدل – يحتاج إلى درع واقية فى عالم لم تصل مبادئه الأخلاقية إلى مستوى تقدمه العقلى » .

والسيد رئيس الجمهورية قد عنى بهذه الناحية طويلا ، ونوه بها فى أكثر من مناسبة ، فنحن نراه فى عيد العلم الخامس يقول : « إن العالم قد مضى بعيدا فى مجالات القوة وزيادة الإنتاج ، فى حين تقاعد فى المجال الروحى والمعنوى عن المضى إلى نفس البعد ، وإن أبرز سمات الأزمة فى عالمنا اليوم أن طاقاته المادية غلبت طاقاته الروحية ، وأصبحت عضلاته أقوى من عقله » .

وفى مناسبة ثانية يعود ليقول : « إذا كان من بشائر التطورات الأخيرة فى الميدان الدولى أن ثمة وعيا كبيرا اليوم للأخطار التى تتعرض لها البشرية كلها إذا ما استعملت هذه القوى الهائلة الجديدة بطيش ورعونة ، وبدون ضابط

من القيم الروحية والمعنوية – فإن علينا أن نعى عظة هذا التطور ، وأن نستفيد منه داخل مجتمعنا .

ذلك أن قوة التقدم العلمى والقوة الناشئة من زيادة الإنتاج يمكن أن تصبح مصدر خطر ما لم تستطع القيم الروحية والمعنوية أن تساير خطاها ، بل تسبقها لتمهد لها » .

* * *

ولو نظرنا إلى الناس لوجدناهم يتخذون طرائق فى أساليب التربية والتهذيب .

فهناك من يعتمد على وازع الآداب العامة والعادات والتقاليد .

وهناك من يعتمد على وازع العقل والتمييز .

وهناك من يعتمد على وازع القانون .

ولا شك أن كل وازع من هذه الوزعة له قيمته وتأثيره ، ولكنه لا يكفى إذا انفرد .

أما الوازع الأخلاقى الدينى الإلهى ، فهو أقوى وازع ، لشمول رقابته وسيطرته ، ولإيمان الخاضع له بأن الله جل جلاله مطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وأنه يعلم السر والنجوى : « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ؟ »

كما أن هذا الوازع الأخلاقى الدينى يستعين ببقية العوامل الأخرى ؛ لأن الدين يحض على احترام الآداب العامة والتقاليد الصالحة ، وعلى استخدام العقل وتنميته ، وعلى احترام القانون .

وفى هذا الوازع الأخلاقى الدينى سطرت سطورا قلت فيها :

الأخلاق عماد الأمم وقوام الشعوب ، تلك حقيقة مسلمة ، لا ينازع فيها إلا مريض أو مغرض ، والله تبارك وتعالى حينما بعث أنبياءه إلى خلقه جعل تمكين الأخلاق الفاضلة فى النفوس البشرية من أصول رسالاتهم وأسس دعواتهم .

وشيخ الأنبياء سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه هو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وهو القائل : « ليس شيء فى الميزان أثقل من حسن الخلق » . والقائل : « خياركم أحاسنكم أخلاقا » .

ولقد سعدت الأمة الإسلامية فى تاريخها الطويل بنماذج كريمة من الرجال الأبطال ، الذين تمسكوا بمكارم الأخلاق ، وتحلوا بفضائل الشيم ، فصنعوا العجائب فى هذه الحياة ، وضربوا للعالمين أروع الأمثال فى مآثر الأعمال .

حتى لو قيل إن الطابع الغالب على شخصية الأمة المحمدية هو طابع الحرص على الأخلاق الفاضلة لما كان ذلك القول بعيدا عن تصوير الحقيقة والواقع .

ولا شك أن الأخلاق قد تدهورت فى نفوس الكثرة الكاثرة من أبناء الحياة اليوم ، ولا شك أن مقارنة بين أخلاق أبناء المسلمين الآن وأخلاق السابقين من رجالات هذه الأمة المجيدة ترينا اتساع الفروق بين الأسلاف والأخلاف .

ولا شك أن لتدهور الأخلاق فى نفوس الأفراد

والجماعات أسبابا كثيرة : منها ما هو اقتصادى مادى يتصل بالحاجة والفقر ، ومنها ما يتصل بسوء القدوة وفساد التقليد ، ومنها ما يتصل بخلل التربية والتعليم ، ومنها ما يتصل بسيطرة الأهواء وانتشار التحلل الجنسى والتميع فى الصلات بين الرجل والمرأة ، إلى غير ذلك من أسباب يطول فى تفصيلها الحديث .

وعندى أن من أقوى الأسباب لتدهور الأخلاق — إن لم يكن أقواها جميعا — ضعف الوازع الدينى ، والوازع الدينى الذى أعنيه هو الزاجر الناهى الذى ينبعث من أعماق النفس البشرية ، فيمتلك عنانها ، ويسيطر عليها ، ويتحكم فيها ، ويسير بها على خطة معلومة وطريق مرسوم .

وهو الذى يوجد فى المرء المحاسبة والمراقبة والخوف والخشية والحياء ، وكثيرا ما يسميه الباحثون بالضمير الدينى ، ولو دققنا النظر لوجدنا أن ذلك الوازع خير حامل للإنسان على أن يكون مثلا من أمثلة الأخلاق الكريمة ، وهو الذى يحول بينه وبين طباع السوء .

* * *

إنما يفعل الإنسان الخير ، ويتمسك بخصال البر ، ويتصرف التصرف النبيل ، ويتحلى بالأخلاق الجميلة ، لفائدة عاجلة يرجوها ، أو لثواب آجل ينتظره ، أو لضرر يريد دفعه ، أو لإعجاب بالخلق الجميل فى ذاته ، دون نظر إلى ثواب أو عقاب .

والوازع الدينى الصادق يحقق لصاحبه كل هذه المعانى ، فهو الذى يحدث صاحبه دائماً بأن الدين خلق ومعاملة ،

وأن هذا الخلق المستقيم يجلب لصاحبه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة ، ويصد عنه غضب الله وغضب الناس ، ويحقق فى نفسه الإحساس بالنبل والشعور بالجمال ، والدخول فى عباد الله الجميل ، الذى يحب الجمال ، وينيله رضا الله عنه ، كما يرضيه عن الله عز وجل .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَاتَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ : إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1] ؟ »

* * *

وكثير من الناس يحسبون أن الاستقامة يمكن أن تغرس فى نفوس أصحابها بالعقوبة والردع وسلطان القانون ، ولا شك أن كثيرين يمنعون أنفسهم عن أمور تنافى الأخلاق الفاضلة خوفاً من العقاب ، وخشية من رهبة القانون .

ولكن أيهما أقوى فى هذا الباب : قانون البشر الظاهر القاصر المدى الحسى العاجز ، أم قانون الله الأخلاقى الباطن ، والظاهر ، والشامل باقتداره وسلطانه دوائر المحسوس والمعقول ومناطق السر والعلن ؟

---

(١) سورة فصلت ، آية ٣٠ – ٣٣ .

والقانون البشرى قد يغض عن أشياء كثيرة تسىء إلى الأخلاق ، أولا تلتئم مع مثلها العليا ، إذ يراها من الحرية ، أو من ظواهر الحياة الاجتماعية ، أو غير ذلك .

ولكن القانون الأخلاقى الذى يكونه الوازع الدينى يرسم طريقاً مستقيما ، يتقيد به المرء عن طواعية واقتناع وإيمان : فى الصغيرة والكبيرة ، والحركه واللفتة ، بل والخطوة والفكرة :

« وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟[1] »

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ، وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[2] » .

* * *

وثمة فرق آخر هو أن قانون الأرض يتهددك بالعقاب إذا أخطأت أوأجرمت ، ولا يعدك بمثوبة إذا التزمت حدود الأخلاق الفاضلة ، أو تحليت بالمكارم والمحامد .

ولكن قانون الأخلاق الدينى يلقاك بالعقاب المهذب العادل إذا أذنبت ، ويعدك بالثواب إذا هممت بالسيئة ثم صددت عنها ، ويعدك بالثواب الجزيل إذا تحليت بالحسنات :

« وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[3] » . .

---

(١) سورة الملك ، آية ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة ق ، آية ١٦ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٦١ .

ومعنى هذا أن قانون الناس يفرض عليك الأخلاق بالرهبة والعقوبة فقط ، وأما قانون الدين فيحمل إليك هذه الأخلاق محوطة بثوبين من الترغيب والترهيب ، أوالإنذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، ومن هنا قال القرآن الكريم فى أسرة أحد الأنبياء :

« إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ[1] » .

وجعل من دعاء المؤمنين قولهم :

« إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ[2] » .

ولست أقصد بالوازع الدينى هنا مجرد الخوف ، بل أقصد به الإحساس العميق الموقن بجلال الله وجماله وكماله ، وأنه متصف بكل حمد ، متنزه عن كل نقص .

ذلك أن الإحساس بجلال الله وعظمته يوجد فى نفس الإنسان الخشوع والإجلال والتعظيم ، مما يصده عن الكثير من خصال الشر والسوء . والإحساس بالجمال الإلهى المطلق يوجد فى نفس الإنسان التحنث والتعبد والمناجاة وحب الجمال ، والرغبة فى التصرف الجميل .

وليس الجمال هنا جمال الحس ، بل المراد به حسن الأفعال وسمو الصفات .

والإحساس بالكمال الإلهى المطلق يوجد فى نفس الإنسان

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩٠ .

(٢) سورة التوبة ، آية ٥٩ .

الشعور بالتسامى . والنفور الشديد من النقص . والرغبة فى التنزه والصعود نحو الكمال .

وإذا ما وجد الإنسان أمام بصره وفكره وفؤاده قوة لامثيل لها ولاشريك ، فيها الجلال الرائع ، والجمال الجامع ، والكمال المطلق — لم يعرف ذلك الإنسان طريق الانحراف فى حياته أوأخلاقه ، لأن هذه القوة ستفجر عنده ينابيع الوازع الدينى الشاعر المفكر المبصر ، الذى يرى بعينه آثار الله تعالى فى الطبيعة ، ويعرف وجود الله وألوهيته عن طريق العقل ، ويشاهد نوره عن طريق القلب . فينهض الوازع الدينى حينئذ على دعائم المحبة والاقتناع واليقين .

وعندى أن أسمى مراتب الوازع الدينى فى نفس المسلم هى مرتبة المحبة لله التى يتولد منها محبة كل عمل جليل . وكل خلق جميل . وكل تصرف نبيل ، كما يتولد عنها بطبيعة الحال كراهية كل تصرف ذميم أوخلق لئيم .

سئل ذو النون المصرى الصوفى المشهور عن المحبة فقال :

« أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، وألا تخاف فى الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين . والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدين » .

وهو القائل أيضاً : « لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه . بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته . ولو قال لك : (اعمل

ما شئت فلست آخذك بذنب) كان ينبغى أن يزيدك كرمه استحياء منه ، وتركا لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً ، وعبداً شكوراً ، فكيف وقد حذرك ؟ » .

ومن هنا جاءت كلمة عمر الخالدة السابقة فى صهيب رضى الله عنهما وهى : « نعم العبد صهيب . لو لم يخف الله لم يعصه » : أراد أنه إنما يطيع الله تعالى حباً له ، لا خوفاً من عقابه ، فلو لم يكن هناك عقاب يخافه صهيب ما عصى الله ، فكيف به وقد خافه مع حبه له ؟

وقد روى مثل هذه العبارة منسوبة إلى عبد الله بن عمر فى حق ابنه سالم بن عبد الله بن عمر : الفقيه العالم العابد الزاهد ، إذ قال فيه : « إن ابنى سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه » .

* * *

ثم أرأيت إلى ذلك الرجل الذى سعى نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجاب لدعوة ربه وآمن به ، وأراد الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يحيى فى صدره ذلك الوازع الدينى ، وذلك الضمير الخلقى . فطلب منه أن يعاهده على عدم الكذب .

وأعطى الرجل العهد بذلك طائعاً مختاراً ، وانصرف من لدن رسول الله ، وأخذ يضطرب فى مسابح الحياة ، وكلما حدثته نفسه أن يأتى أمراً لا يليق بدينه وخلقه تذكر أن الرسول سيسأله عما فعله ، ولن يستطيع الكذب ، ومعنى

هذا أنه سيقف نفسه موقف الحرى والخجل . وإذن فلا محل لإتيان ذلك الأمر .

وهكذا انصرف هذا المسلم الجديد الوفى بعهده عن منكرات الأعمال والأقوال . وسيىء الطباع والأخلاق . عن طريق هذا الوازع الدينى المسيطر .

ثم أرأيت إلى هذا المسلم المؤمن الموقن الذى تربى الوازع الدينى فى نفسه خير تربية ؟ أرأيته وهو يصارع أهواءه فيصرعها . وكلما همت نفسه الأمارة بالسوء أن تأتى إثماً — تذكر ربه وحسابه ، وتذكر دينه وخلقه ، وتذكر اطلاع الله تعالى عليه ، وإحاطته به . فلا تستطيع يده أن تتحرك . ولا رجله أن تبطش ، ويقف عن الإثم الذى هم به وقد قيدته قيود لا حصر لها ، وإن لم يرها ولم يشاهدها .

وهذه هى مرتبة « الإحسان » التى يصورها سيد البشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما جاء فى الحديث الصحيح المعروف .

* * *

ومن عجيب صنع القرآن الكريم فى تربية هذا الوازع الدينى الخلقى أنه لم يجعل نتيجة الخوف أمراً سلبياً ، وهو النجاة من العقوبة وعدم التعرض للعذاب . بل جعل للخوف فوق النجاة والسلامة جزاء إيجابيا وثمرة أخرى فوق الخلاص من العقاب . وهى الثواب الجزيل والأجر العظيم :

استمع إلى قول الله تبارك وتعالى .

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[1] » .

وقوله : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ[2] » .

وقوله : « وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ[3] » .

ومثل هذا قد نراه فى حديث القرآن الكريم عن الخشية ، كقوله عز من قائل .

« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[4] » .

فجمع لهم بين المغفرة والأجر العظيم .

ولكن لا عجب فى ذلك ولا غرابة ، فالخوف من الله تعالى إذا جاء على وجهه ، وأثمر ثمرته — كان أساساً للإيمان واليقين ، وكان دافعاً أى دافع إلى إتيان الأوامر واجتناب النواهى .

ومن هنا جاءت أقوال حكماء الأمة وعبادها منوهة

---

(١) سورة النازعات ، آية ٤٠ و ٤١ .
(٢) سورة الرحمن ، آية ٤٦ .
(٣) سورة إبراهيم ، آية ١٤ .
(٤) سورة الملك ، آية ١٢ .

بشأن الخوف . رافعة من قدره . فهذا أبو عمرو الدمشقى الصوفى يقول : « حقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحداً » .

ويقول ذو النون المصرى : « إذا صح اليقين فى القلب صح الخوف فيه » .

ويقول أبو سليمان الدارانى : « لكل شىء صدق . وصدق اليقين الخوف من الله تعالى » .

ويقول أبو العباس بن مسروق الطوسى : « من راقب الله تعالى فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه » .

إن هاتفاً من أعماق الكون يهتف قائلا : إذا أردتم للفرد صلاحاً ، وللأمة إصلاحاً ، وللعالم خيراً . فاغرسوا الوازع الدينى السليم فى نفوس الناس . وبذلك تصلح شئونهم ، ويستقيمون على الصراط !

لزوم القيم الاخلاقية

يشير الميثاق إلى ضرورة تحقق القيم الأخلاقية بيننا ، حتى تكون معتصما نفسياً من جهة ، ومعياراً يقاس به مستوى الأفراد الأخلاقى من جهة ثانية .

ونحن نجد الميثاق فى الباب الأول منه يقول : « الشعب المصرى تحت ظروف هذه المعارك الثورية المتشابكة المتداخلة كان مصراً على أن يستخلص للمجتمع الجديد الذى يتطلع إليه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة ، وتعبر عنها ثقافة وطنية جديدة » .

وفى الباب الثانى يشير الميثاق إلى « تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للأمة » . وفى الباب نفسه يحدثنا الميثاق بأن الثورة العربية تحتاج إلى قدرات ثلاث : أولاها الوعى .

وثانيتها أو وسطاها هى « الحركة السريعة الطليقة التى تستجيب للظروف المتغيرة التى يجابهها النضال العربى ، على أن تلتزم هذه الحركة أهداف النضال ومثله الأخلاقية » .

وثالثتها الوضوح فى رؤية الأهداف .

ويأتى التقرير عقب الميثاق ليحدثنا بأن الإنسان مكون من مادة وروح ، وأنه لايمكنه أن يعيش بواحد منهما فقط ، لأن المادة دون الروح جماد ، لا حياة فيه ولا حركة ؛ ولأن الروح دون الجسد والمادة تصبح شيئاً غير محدود لا يستطيع أن يجد حيزه فى هذه الحياة .

يقول التقرير فى باب « الدين والمجتمع » هذه العبارة :

« إن حياة الإنسان تحكمها القوى الروحية والقوى المادية معاً ، ولا سبيل للفصل بينهما ؛ فكلتاهما ضرورية لقيام المجتمع السليم .

ومن هنا ثبت فى تفكيرنا ونحن نصوغ المبادئ والقيم التى يقوم عليها المجتمع الاشتراكى العربى أن القوى الروحية والقوى المادية ضرورتان لبناء المجتمع ، وأنه يجب علينا حتى يكون هذا المجتمع قوى الجسم والعقل ، سليم الروح والنفس ، أن يقوم التوازن بين ماديات هـذا المجتمع وروحانياته المستمدة من القيم الخالدة النابعة من الدين » .

وحينما عرض السيد رئيس الجمهورية التنظيم السياسى للاتحاد الاشتراكى العربى تحدث عن الصفات التى يلزم توافرها فى عضو الاتحاد الاشتراكى العربى ، فإذا هذه الصفات قيم أخلاقية روحية ، لأنه اشترط فى العضو أن يكون مواطناً شريفاً عفيفاً ، لا يستغل ، ولا يطلب ميزات أو استثناءات ، بل يضع المصلحة العامة فوق مصلحته الشخصية ، ويخدم الوطن والشعب بروحه وقلبه ، ويتصرف كقدوة ، ولا يتعالى على الشعب ، بل يوثق روابطه به ، ويخلص له ، ويتقبل النقد لنفسه ، ويمارس النقد الذاتى . . إلخ .

وقد ركز الرئيس حديثه فى مقاومة رذيلتين يجب أن يتنزه عنهما عضو الاتحاد الاشتراكى العربى ، وهما السكر والمراباة ، ولا أكتم أنى فرحت يومئذ بهذا الحديث ، فسطرت عنه هذه الكلمات .

فى يوم الأربعاء الرابع من يوليه ١٩٦٢ تولى السيد الرئيس الرد على الأسئلة والاستفسارات التى وجهت بشأن الاتحاد الاشتراكى العربى . ولقد سررت حينما سمعته يتحدث فى المؤتمر عن الصفات التى تلزم عضو الاتحاد الاشتراكى العربى ، فذكر منها أنه يجب ألا يكون سكيراً ولامرابيا .

وقال فيما قال : « إننا نريد تنظيما مبنياً على الإيمان الكامل والوعى الكامل . وهناك شخص يحترق قلبه على بلده وعلى المبادئ التى تعز وطنه ، فهو يعطى المثل الطيب للمواطن الصالح ، فهذا هو العضو السليم .

وهناك شخص يشرب الخمر . ويظل مخموراً طوال الليل وطوال النهار ، فكيف يدخل مثل هذا فى الاتحاد الاشتراكى العربى ، مع أنه منحرف ويفسد الشخص السليم ؟ وليس لهذا السكران إلا أن يقول إنه جدع ! وإنه يستطيع أن يقف أمام الناس كلهم ، مع أنه أفسد الأمثلة الموجودة . فكيف نضع هذا السكران مع الرجل الذى يعد قدوة طيبة ؟ إننا لو قبلنا مثل هذا فى الاتحاد لقلب لنا كل الأعضاء إلى سكيرين وشاربين للخمور » ! .

ثم قال السيد الرئيس أيضاً : « وهناك شخص يقرض غيره بالربا ، ويعلم الناس عنه أنه يتعامل بالربا ، فكيف آخذ مثل هذا المرابى وأضعه فى الاتحاد الاشتراكى ؟ إنه إن دخل فسينقض الميثاق من الأساس . إن واجب العضو فى الاتحاد ألا يكون مرابياً ولا سكيراً ، وألا تكون فيه نقيصة من النقائص » .

هذا جانب من كلام السيد رئيس الجمهورية فى هذا المقام ، وهو كلام له قيمته وتأثيره .

ومن الواجب أن نطيل التفكير فيه والتدبر له ؛ لأنه يتحدث عن آفتين خبيثتين من آفات المجتمع ، وهما السكر والمراباة .

والخمر هى مصدر البلايا : تهلك المال فى الإثم ، وتقتل العقل والفهم ، وتقضى على الرجولية والنخوة ، وتقوض الأخلاق والهمم ، وتجعل المخمور كالحيوان يصفع فلايتألم ، وقد يبول على نفسه فلا يخجل . وقد تنتهك حرماته فلا يثور !

ولذلك شن الإسلام على الخمر حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كان الإسلام قد سلك فى القضاء على الخمر مسلك التدرج فلأنها كانت سائدة ومتحكمة .

ومع ذلك جاء القرآن الكريم فحسم الأمر ، وقطع بالحكم ، فقال :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[1] ؟ » .

وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام ، فصور لنا الخمر

---

(١) سورة المائدة ، آية ٩٠ و ٩١ .

على أنها أم الخبائث . ومبعث النكبات . فقال فيما قال : « إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا : وماطينة الخبال يارسول الله ؟ . فقال : صديد أهل النار ! » .

وقال : « لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه » .

ولقد قيل لعدى بن حاتم : مالك لاتشرب الخمر ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلى !

وقدم بعض الأعراب إلى امرأة قدحاً من الخمر ، وهى لاتعرف أنها خمر ، فلما شربت ما فى القدح انتشت . فقالت لهم : أتشرب من هذا نساؤكم ؟ .

قالوا : نعم . فقالت لهم : زنين ورب الكعبة !

وقال أحد الشعراء فى شرور الخمر:

مراراً تريك الغى رشداً ، وتارة
تخيل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الود مبغض
وأن مديح المادحين هجاء

* * *

وأما المراباة فإنها لون شنيع فظيع من ألوان تحكم الأقوياء فى الضعفاء ، واستغلال الأغنياء لحاجة الفقراء ، مما يتنافى مع الروح الاشتراكية والعدالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية .

وحسبنا فى تصور شناعة الربا وفظاعته أن نتذكر أن

ألأم خلق الله على الأرض – وهم اليهود – هم الذين احترفوه وصنفوه ، وأذاعوه وأسرفوا فيه .

ولذلك قال عنهم القرآن الكريم :

« وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ[1] » .

وجاء القرآن الكريم بعد هذا محرما قليله وكثيره فقال :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ، يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ،

---

(١) سورة النساء ، آية ١٦١ .

وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَظْلِمُونَ ولاَ تُظْلَمُونَ[1] » .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يتخبط » . وقال أيضاً : « إن الربا – وإن كثر – عاقبته إلى قل » .

ويجب أن نتذكر هنا أنه قد تكررت الإشارة فى مناسبات مهمة وعامة إلى خطر المراباة والمرابين . فى الباب السابع من الميثاق الوطنى الذى أقره ممثلو الشعب جاء أنه ينبغى تحرير الفلاح وحمايته من خطر المرابين .

وفى شهر يوليه سنة ١٩٦١ خطب رئيس الجمهورية فأشار إلى خطر الربا ، وأنه ميراث وخيم ثقيل ، خلفه لنا الماضى ، وأن الدولة ستشرع فى تجربة لإلغائه . وهى أن يقوم بنك التسليف الزراعى التعاونى بإقراض الفلاحين بلا فائدة ولا ربا .

وفى اليوم الرابع من يوليه سنة ١٩٦٢ ذكر السيد رئيس الجمهورية فى المؤتمر الوطنى أن من بين شروط العضو فى الاتحاد الاشتراكى العربى ألا يكون مرابيا .

ولا شك أن هذا كله يذكرنا بهدى الله تبارك وتعالى الذى يقود إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ولا شك أن هذا كله نصر للفضيلة والقيم الدينية السامية ، لأن الذى يقول هذا ليس فرداً عادياً ، وإنما يقوله رئيس دولة وقائد أمة .

وإذا كانت الدعوة إلى محاربة الخمر والربا قد تكررت

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ – ٢٧٩ .

عشرات المرات داخل المساجد . وفى أماكن الوعظ ، والإرشاد – فقد كان الذين يستمعون إليها قلة ، وكانت هذه القلة بعيدة عن الخمر والربا . لأنها الفئة التى ترتاد المساجد ، وتعبد الله وتخافه . فهى لا تألف السكر ولا المراباة .

ولكن هذا الصوت الكبير حينما انطلق منددا بالخمر والربا سمعه الناس فى كل مكان ، وفى داخل الوطن وخارجه ، وكان له أثره الطيب فى نفس كل غيور على الأخلاق والعدالة .

وقد آن الأوان للذين يدمنون المسكرات أن يقلعوا عنها ، حتى لايحرمهم الوطن صفة المواطن الشريف .

وقد آن الأوان أيضاً للذين يرابون ويمتصون دماء الناس أن يتوبوا إلى الله تعالى ، ويتركوا ما هم فيه من غش ، وضلال حتى ينالوا نعمة المشاركة فى خدمة هذا الوطن العزيز .

ولقد قلت فى كلمة لى سجلها القسم الأول من ملحق مضابط الجلسات فى المؤتمر ما يلى :

«ولقد أشار مشروع الميثاق فى الباب السابع منه إلى أن الآفاق التعاونية فى المجتمع الجديد تعمل على حماية الفلاح وتحريره من المرابين .

وفى يوليه سنة ١٩٦١ أسعد رئيس الجمهورية قلوب المؤمنين بالله وبالعدالة وبالتعاون حينما أشار فى خطبته إلى أن النظام الربوى كان من بين الآثار التى ورثناها عن الماضين ولم نبتدئها ، وحينما صرح بأنه سيبدأ فى تجربة أولى لإلغاء

الربا ، وهى أن يقوم بنك التسليف الزراعى التعاونى بإقراض الفلاحين دون ربا أو فائدة .

ولا شك أن هذا يتضمن الإشارة إلى خطر الربا واستغلال المرابين لنظامه ، ونحن نتطلع إلى يوم تسود فيه النظم التعاونية التى تقضى على كل أثر للنظام الربوى » .

* * *

وإذا كان السيد رئيس الجمهورية قد أشار إلى أن عضو الاتحاد الاشتراكى العربى يجب ألا تكون فيه أية نقيصة فهو من غير شك يقصد النقائص الأخلاقية التى تعيب صاحبها وتشينه . وتجعله غير صالح لشرف العضوية فى الاتحاد .

وهو فى هذا يؤكد ما جاء فى الميثاق عن حاجة الأخلاق إلى تقوية وتأييد . حتى يكون المستوى الأخلاقى موائماً للتقدم العلمى .

وفى الجلسة الخامسة من جلسات المؤتمر قلت فيما قلت : « إنى أحس كما يحس كل متبصر فى شئون مجتمعنا أننا بحاجة إلى المزيد من الأخلاق قبل حاجتنا إلى مزيد من العلم ، وأكرر أننا بحاجة إلى مزيد من الأخلاق قبل حاجتنا إلى مزيد من العلم » .

وفى ضوء الكلام الذى قاله السيد رئيس الجمهورية عن صفات العضو فى الاتحاد الاشتراكى العربى أقول :

عندما تفتح أبواب الانتساب إلى الاتحاد الاشتراكى العربى الذى يجب أن يكون إطارا يضم الشعب الصالح

كله فعلى كل فرد فى الوطن أن يسائل نفسه عن مدى صلاحيته للانضمام إليه ، والمشاركة فيه ، والقيام برسالته ، وعلى كل سكير مخمور أن يطهر نفسه من دنس الخمر وخبث المسكر ، حتى لا يقال له يومئذ : تنح بعيداً عنا أيها القذر ، حتى لا تلوث غيرك من الأخيار الأطهار ، وحتى لا تقلب المكان النظيف المعمور إلى ماخور !

وعلى كل مراب أن يترك ماهو فيه من رذيلة المراباة حتى يصير إنساناً له حقوق الإنسانية الكريمة ، وحتى لا يصرخ فى وجهه مواطنوه الشرفاء قائلين له : أغرب عن وجوهنا أيها اللص الماكر الذى سلب الحقوق ، وامتص العروق !

وعلينا جميعاً أن نحسن الانتفاع بهذا التوجيه المصلح ، ليكون فى ذلك تأييد لديننا وإعزاز لوطننا :

« وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[1] »

ولنتذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام رجع مع أصحابه من إحدى الغزوات فقال لهم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس !

ونحن مقبلون على مهمة جليلة تحتاج إلى النفوس الطاهرة ، والقلوب العامرة بالإيمان ، والأيدى المتلاقية على سامى القيم وكريم المبادئ ، والله ولى الصالحين المصلحين .

---

(١) سورة النحل ، آية ٩ .

مع الدين فى نواحى الحياة

يقرر الميثاق فى الباب السابع : « أن الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع ، ولابد أن تتوافر لها كل أسباب الحماية التى تمكنها من أن تكون حافظة للتقليد الوطنى ، مجددة لنسيجه ، متحركة بالمجتمع كله ومعه إلى غايات النضال الوطنى » .

وجعل الأسرة أساس المجتمع والخلية الأولى له يتفق مع مبادئ الإسلام الذى يجعل الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع :

« يَـأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً[1] » .

« ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِى ذٰلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[2] .

والنص على أن الأسرة هى أساس المجتمع والخلية الأولى له يفيد أن مبادئنا تخالف مبادئ الشيوعية التى تجعل « النقابة » أساس المجتمع ، ولا تحتفظ لروابط الأسرة بمثل ما تحتفظ لها به تمشياً مع ديننا الذى ندين الله عليه .

---

(١) سورة النساء ، الآية الأولى .

(٢) سورة الروم ، آية ٢١ .

ولقد جاء تقرير الميثاق يؤكد أن الأسرة أساس المجتمع ، ويقول : « ومن الواجب أن نعمل دائماً على دعم روابط الأسرة على أساس الدين والأخلاق والوطنية » .

* * *

وحينما تحدث الميثاق عن مساواة المرأة بالرجل كان يضع فى تقديره أن هذه المساواة إنما هى فى حدود الدين والشريعة ، ولذلك جاء تقرير الميثاق يقول : « إن المساواة بين المرأة والرجل فى نطاق الدين والشريعة أمر ضرورى » .

ويمضى التقرير فى إيضاح أن هذه المساواة داخل ذلك النطاق ليست بدعة جديدة ، وإنما هى رجوع إلى دين الله الحنيف العادل المنصف ، فيقول :

« إننا حين نحقق المساواة بين المرأة والرجل فى حقوق المواطن الأساسية ، لا نصطنع جديداً على مواريثنا الدينية والاجتماعية ، لأن الدين ينادى بهذه المساواة ، وحسبنا قول الله تعالى :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ[1] » .

وفى المسيحية أيضاً ما يرمز إلى هذه المساواة فى المعاملة بين المرأة والرجل « لأن الجميع واحد » .

واحتاط التقرير فى عمل المرأة بما يدعو إليه الدين ، فذكر أنه على المجتمع أن يدعم فرص العمل للمرأة دائماً : « بما يصون المرأة ، ويحفظ عليها كرامتها » .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩٥ .

ويعود ليقول : « ومن واجب المجتمع أن يهيئ الأجواء الصالحة لكى تباشر المرأة أعمالها وواجباتها . كما أن من واجبه كذلك أن يوفر الظروف والأسباب التى تجعل المرأة تحسن التوفيق بين نصيبها فى العمل وبين واجباتها الأساسية فى ميدان الأمومة والأسرة » .

وحينما تعرض التقرير للأمور المتعلقة بحقوق المرأة أشار إلى أن هذه الأمور يعالجها قانون الأحوال الشخصية المستمد بطبيعة الحال من الشريعة الإسلامية ، ثم يعقب التقرير على ذلك بقوله : « بحيث لا تهضم المرأة فى حق من الحقوق التى كفلتها لها شريعة الله عز وجل » .

فكأن التقرير والميثاق يتلاقيان على أن الأمور المتعلقة بوضع المرأة فى المجتمع يجب أن تعالج فى ضوء الشريعة ، وفى نطاق الدين الذى أعز المرأة ، ورسم لها رسالتها ، ورفع مكانتها ، وحدد لها حقوقها وواجباتها ، كما حدد للرجل حقوقه وواجباته ، ونظم العلاقة بينهما تنظيما تستقر به الأسرة ، ويسعد به الرجل والمرأة .

* * *

وحينما تحدث الميثاق عن الاشتراكية أشعرنا فى وضوح بأنها اشتراكية ينبغى دائما أن تنبع « من قيمنا الروحية والدينية والخلقية ، وتستجيب لواقع بيئتنا وظروفنا الاجتماعية » .

ويعود التقرير ليقول : « وكانت اشتراكيتنا انعكاسا أمينا لكل تاريخنا بما استقر فيه من مبادئ ، وما تفاعل فيه من قيم دينية وخلقية ، مما يجعلها اشتراكية عربية فى قيمها وفى حلولها » .

ويذكر تقرير الميثاق الملامح التى تميز اشراكيتنا . ومنها أنها تؤمن بالله وبرسالاته وبالقيم الدينية والأخلاقية ، وأنها تؤمن بالملكية الفردية ، والرسول يقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

وأنها تؤمن بحق الإرث الشرعى ، والإرث نظام إلهى نص عليه القرآن وتحدث عنه ، فله مكانته وقداسته ، ولذلك قال الميثاق فى الباب السادس : « إن سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج لا تستلزم تأميم كل وسائل الإنتاج ، ولا تلغى الملكية الخاصة ، ولا تمس حق الإرث الشرعى المترتب عليها »

وأنها تؤمن بالعدل أساسا للعلاقات الاجتماعية ، والقرآن يقول :

« وإذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ(١)»

وأنها لا تقبل العنف وسيلة لحل المشكلات .

وفى السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة تحرض على اللين والرفق فى معالجة الأمور ، ومنها قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه » . وقوله : « إن الرفق لم يكن فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء قط إلا شانه » .

ولذلك حق للتقرير أن يقول : إن لاشتراكيتنا العربية خصائصها المتميزة ، وعلى ذلك لايصح إطلاقا أن نفسرها فى ضوء أى مذهب اشتراكى آخر .

---

(١) سورة النساء ، آية ٥٨ .

إن علينا أن نحمى اشتراكيتنا العربية من أن يستغلها البعض فينحرف بمفاهيمها إلى مفاهيم مذهبية غريبة عنها .

إن على القيادات الشعبية والفكرية . وعلى أجهزة الدولة أن تقوم بحماية اشتراكيتنا من مثل هذه الانحرافات التى يعمل لها الانتهازيون والعملاء .

* * *

ثم يأتى حديث « الوحدة » فى الميثاق . فاذا هو فى موضع يتحدث عن عوامل الوحدة العربية فيقول : « يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان . ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير » .

ووحدة اللغة تتمثل فى أعلى صورها وأسمى مستوى لها فى القرآن الكريم الذى نزل بلهجة قريش . فجمع القبائل كلها على هذه اللهجة . ووحد القرآن الكريم اللغة وصانها وأبقاها وكتب لها الخلود بخلوده :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (١) .

ووحدة التاريخ لها صلتها القوية بالإسلام . لأن هذا التاريخ الباهر العاطر تمتزج فيه العروبة بالإسلام امتزاجا كريما طهورا ، ولذلك نقول دائما إن العروبة وعاء الإسلام ، وإن الإسلام روح العروبة .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩ .

ووحدة المستقبل والمصير من صميم مبادئ الإسلام وحسبنا أن القرآن المجيد يقول :

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ[1] »

وقد جاء التقرير مع الميثاق يزكى العقيدة بوصفها أحد عوامل القومية والوحدة معا ، فإذا هو يقول عن أمتنا : « وهى أمة أتيح لها فى تاريخها القديم أن تعيش فى بقعة حضارية عمرتها الرسالات السماوية بما حملت من عقيدة وإيمان وتعاليم ومثل » .

وهى أمة أتيح لها فى تاريخها الإسلامى أن تحمل رسالة التوحيد والحرية والنهضة الاجتماعية والفكرية إلى سائر أرجاء العالم ، وأن تجتمع لها إلى جانب وحدة العقيدة وحدة اللغة والتاريخ ، وأن تتحقق لها بذلك وحدة الفكر والضمير والوجدان والمصير المشترك . وأن تقوم لها على أساس كل ذلك قومية عربية مكتملة الشخصية متينة البنيان .

وقد حاول الميثاق أن يؤكد لنا أنه لا تعارض بين اعتزاز المصرى بوطنيته وعمله فى الوقت نفسه لوحدة قومه وعروبته فحينما تحدث عن أسباب الفشل لثورة سنة ١٩١٩ قال :

« إن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية ، ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية » .

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ٥٢ .

وأرى أيضا أنه لاتصادم بين حرصنا على الوحدة العربية وعملنا للأخوة الإسلامية ، فإن وحدة الأمة العربية دعامة أية دعامة لتقوية الروابط الأخوية بين الشعوب الإسلامية .

وإذا كانت ثورتنا قد استطاعت أن تمد بصرها عبر سيناء فى وعى وإدراك . وأن تحسن اللقيا بين الوطنية المصرية والقومية العربية . فإن هذه الثورة قادرة أيضاً على أن تحسن الانتفاع بحسن التوفيق بين الجهود المبذولة فى حقل العروبة والجهود المبذولة فى حقل العالم الإسلامى . لأن العالم العربى هو قلب هذا العالم الإسلامى . والعالم الإسلامى بشعوبه المتجاوبة مع الأمة العربية والمتداخلة معها فى أكثر أعدادها يعد ردءا للعالم العربى .

وبإحكام الخطة وصدق النية ومواصلة الجهد فى هذا الصدد نستطيع أن نكسب الكثير لأهدافنا ومبادئنا . فنخدم قوميتنا وعروبتنا ، وفى الوقت نفسه نؤدى ما استحق فى أعناقنا نحو إخوة لنا فى العالم الإسلامى نحس برباط روحى وثيق يشدنا إليهم ، وما أوثق الوشائج بين العروبة والإسلام فالعروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة .

ولذلك ينبغى أن تكون خطواتنا فى ميادين الوحدة منسقة متكاملة ، فنحن يجب أن نعمل لتأصيل وحدة وطنية مصرية داخل قطرنا .

ثم نعمل لوحدة عربية شاملة .

ونعمل لتوثيق وشائج الأخوة والتكافل والتعاون بين أبناء العالم الإسلامى كله .

ونعمل لجامعة إفريقية تحمى قارتنا من العدوان ، وتهيء لها أن تكتفى اكتفاء ذاتياً ، وأن تكون لأبنائها لا للغرباء .

ونعمل لتضامن آسيوى إفريقى لما بين القارتين من روابط عميقة وسحيقة . ونعمل لتأييد ميثاق الأمم المتحدة ، ونغار على حقوق الإنسان ، وتتطلع عيون رجائنا إلى أخوة إنسانية عالمية شعارها العدالة والمحبة والمساواة بين الشعوب .

ولذلك أقبل الميثاق يقول فى الباب العاشر : « وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوى إفريقى ، ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ، ويؤمن برباط روحى وثيق يشده إلى العالم الإسلامى ، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة ، وبولائه لميثاقها الذى استخلصته آلام الشعوب فى محنة حربين عالميتين تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة .

إن الإيمان بهذا كله لا يتعارض بعضه مع بعض ولا يتصادم ، وإنما هى حلقات سلسلة واحدة ، إن شعبنا شعب عربى ، ومصيره يرتبط بوحدة مصير الأمة العربية . إن شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لإفريقية المناضلة ، وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

إن شعبنا ينتمى إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطنى ، وهو أبرز سمات القرن العشرين . إن شعبنا يعتقد فى السلام كمبدأ ، ويعتقد فيه كضرورة حيوية ، ومن ثم لايتوانى عن العمل من أجله مع جميع الذين يشاركونه نفس الاعتقاد .

إن شعبنا يعتقد فى رسالة الأديان ، وهو يعيش فى المنطقة التى هبطت عليها رسالات السماء . إن شعبنا يعيش ويناضل من أجل المبادىء الإنسانية السامية التى كتبتها الشعوب بدمائها فى ميثاق الأمم المتحدة . إن فقرات كثيرة من هذا الميثاق قد كتبت بدماء شعبنا ودماء غيره من الشعوب.

إن شعبنا عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل ، بالمحبة والسلام . إن شعبنا يملك من إيمانه بالله . وإيمانه بنفسه . ما يمكنه من فرض إرادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه » .

وكأن الميثاق فى هذا النص قد ذكر مراحل الوحدة ، وذكر مع كل مرحلة ما يقتضيها ويدعو إليها :

ألسنا محتاجين إلى أن نتحد داخل مصرنا لنكون قوة باتحادنا ؟

ألسنا محتاجين إلى وحدة عربيـــة ونحن أمة واحدة بما بث الله بين أرجائها من عوامل وحدتها وعناصر قوميتها ؟

ألسنا محتاجين إلى جامعة إفريقية ونحن باب إفريقية ، وفى اجتماعها قوة لها ولنا ؟ .

ألسنا محتاجين إلى تضامن آسيا وإفريقية اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرر الوطنى ؟ .

* * *

ويحسن أن نعود إلى كتاب « فلسفة الثورة » لنجده يتحدث عن هذه الدوائر المتداخلة من دوائر التجمـــع والاتحاد ، فيقول : « أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا

بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا ، وليس مجرد كلام ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية ، شاء لنا القدر ان نكون فيها ، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا ، سواء أردنا أم لم نرد ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما إسلاميا تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وإنما تشدها حقائق التاريخ ؟

وكما قلت مرة : إن القدر لا يهزل : فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غربى آسيا يلاصق الدول العربية ، وتشتبك حياته بحياتها ؛ وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق إفريقية ، ويطل من على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد .

وليس عبثا أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة تراجع إلى مصر ، وأوى إليها فحمته مصر ، وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى « عين جالوت » .

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لا نستطيع — مهما حاولنا — أن ننساها أو نفر منهما » .

وبعد سطور يعود صاحب « فلسفة الثورة » ليقول :

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا ، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ . وعانينا معها نفس المحن . وعشنا نفس الأزمات . وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك !

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضا بالدين . فنقلت مراكز الإشعاع الدينى فى حدود عواصمها : من مكة إلى الكوفة ثم إلى القاهرة . ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » .

وبعد أن تحدثت « فلسفة الثورة » عن مصادر القوة وعناصرها فى الدائرة العربية ، وهى الدائرة الأولى من دوائر ثلاث تنتقل بينها جهود التجمع والتوحد . قالت :

« فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية – وهى دائرة القارة الإفريقية – قلت دون استفاضة ودون إسهاب : إننا لن نستطيع بحال من الأحوال – حتى لو أردنا – أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقية بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الإفريقيين !

لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى إفريقية ، ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله !

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئولياتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق القارة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان الشقيق الحبيب تمتد حدوده إلى أعماق إفريقية ، ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها . والمؤكد أن إفريقية الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى إفريقية ، ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا !

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهدا ضخما لإفريقية ، يسعى لكشف نواحى القارة أمام أعيننا ، ويخلق فى عقولنا وعياً إفريقياً مستنيراً ، ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها !

ثم تبقى الدائرة الثالثة : الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين » .

ثم تحدث الرئيس بعد ذلك عن مؤتمر الحج والانتفاع به ليكون قوة سياسية ضخمة ، ومؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجالها : ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة

بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام !

* * *

وحينما يتحدث الميثاق أو تقريره عن التضامن الآسيوى الإفريقى لا يكون الحديث مقطوع الأواصر أو الصلات بالناحية الدينية ، وذلك لأن إفريقية فيها كثرة ضخمة من المسلمين ، وآسيا تنزلت فيها آيات الوحى ، وإفريقيـة تسلمتها بعد قليل .

وهذا هو مؤتمر باندونج المشهور الذى تمثل فيه التضامن الآسيوى الإفريقى تمثلا رائعا ـ نجده ينص على الروابط الدينية والروحية التى تربط إفريقية بآسـيا . فالرئيس سوكارنو يقول فى هذا المؤتمر : « من الواجب أن تؤسس المجتمعات والحكومات على المثل الأخلاقية الرفيعة » . ثم يقول : « الشعوب الإفريقية والآسيوية لا تستطيع منافسة الدول الكبرى فى مضمار التسلح ، ولكنها تستطيع حشد قواها الروحية والخلقية والسياسية لخدمة السلام » .

ويقول « السير جون كوتيلا والا » رئيس وفد سيلان فى مؤتمر باندونج :

« إننا معشر شعوب آسيا وإفريقية الجديدتين ، مهما اختلفت لغاتنا وعقائدنا ، ومهما تعددت أنظمة حكمنا ، ومهما تغايرت ألواننا سوداء أو سمراء أو صفراء ـ فلدينا جميعا أمر مشترك ؛ ذلك أننا جميعا فقراء متخلفون اقتصاديا واجتماعيا !

لقد دمغتنا قرون العبودية والجمود بميسمها ، وخلفت

لكتلتنا الشعبية أثقال الفاقة والجهالة ، وجميع مبادئنا وأدياننا تستحثنا باسم العدالة الاجتماعية والعاطفة الإنسانية ؛ لنخلص بلادنا من شر الفاقة المستطير ، وهى كذلك تستحثنا باسم السلام ! » .

وكان من قرارات المؤتمر هذا القرار التالى :

« اقتنع المؤتمر الآسيوى الأفريقى بأن من أقوى وسائل التفاهم المثمر بين الأمم تنمية التعاون الثقافى ، ولقد كانت آسيا وإفريقية مهد الأديان والحضارات العظيمة التى أغنت سائر الثقافات والحضارات ، وأغنت نفسها فى وقت واحد ، وهكذا قامت ثقافات آسيا وإفريقية على أسس روحية عالمية .

ولكنه لسوء الحظ توقفت الاتصالات الثقافية بين البلاد الآسيوية والإفريقية خلال القرون الماضية ، وإن شعوب آسيا وإفريقية لتفيض الآن شعورا بالرغبة القوية الصادقة فى تجديد العلاقات الثقافية القديمة ، وتنمية صلات جديدة فى نطاق العالم الحديث » .

* * *

وهذا هو « تقرير الميثاق » يؤكد العناية بتوثيق الروابط بين الشعوب الإسلامية فيقول : « وإن شعبنا المؤمن ليشعر بقوة الروابط الروحية والثقافية التى تربط شعبنا العربى بسائر الشعوب الإسلامية ، ويتطلع إلى المزيد من التعاون معها فى سبيل الحرية والرخاء والسلام العالمى » .

كما يشيد التقرير بقيمة الفن الإسلامى فى مجال الوحدة ، فيقول : « وقد كان الفن الإسلامى – ولا يزال – رباطا

لوحدة المشارب فى الأمة العربية » . ونحن نؤمن بقيمة الفن الإسلامى ، وبجليل الأثر الذى يحققه الفن إذا اصطبغ بصبغة دينية طاهرة ، ولذلك أقول دائما : « إذا تدين رجل الفن ، وتفنن رجل الدين — التقيا فى منتصف الطريق ، لخدمة العقيدة القويمة والفن السليم » .

ولقد أشار الميثاق أكثر من مرة إلى وجوب تغيير القوانين ؛ لأن أكثر هذه القوانين قد صيغ فى عهد مظلم ؛ ولأن كثيرا منها مستعار ، وجاء تقرير الميثاق يقول : « إن الشريعة الغراء ستكون مصدرا أساسيا للتقنين » . وقال التقرير : « إن العمل الثورى . يستمد منابعه من شريعة العدل شريعة الله » .

* * *

ولقد تحدث تقرير الميثاق عن الشباب فلم ينس الدين ، ولم ينس أثره الجليل فى نفوس الشباب . فهو الذى يربى شخصياتهم . وينمى عزائمهم ، ويفسح المجال أمام هممهم . ويحصنهم ضد الأهواء والشهوات .

ولذلك قال التقرير : « يجب أن يشمل التخطيط وضع خطة عامة متكاملة لرعاية الشباب بدنيا ودينيا وسياسيا ؛ لنضمن له سلامة الجسم والدين والخلق . وندعم إيمانه بمبادىء الديمقراطية والاشتراكية والوحدة العربية فى مجتمعنا الجديد . ونحميه من المراهقة الفكرية والانحرافات المذهبية ، وننمى فيه الشعور بالمسئولية للقيام بواجباته نحو المجتمع . ولابد أن تتعاون جميع الأجهزة المسئولة عن الشباب فى تنفيذ هذه الخطة » .

ونلاحظ أن الحديث عن النواحى الدينية قد تناثر فى الميثاق هنا وهناك ، وكأن أجزاء هذا الحديث تريد أن ترينا أن نسمات الكلام عن الدين تشع فى أكثر من مكان من الميثاق ، ثم جاء التقرير فخصص فصلا من فصوله للدين ، وجعل عنوانه « الدين والمجتمع » ، وجاء هذا الفصل فى طليعة الفصول الباقية بعد افتتاحية التقرير التى دارت حول « ضرورة الميثاق وطبيعته ومغزاه التاريخى » .

ولعل التعبير بكلمة « الدين والمجتمع » تعبير أريد منه الإيحاء برسالة الدين فى المجتمع ، وهى رسالة إيجابية عملية صالحة مصلحة ، لا عزلة فيها ولا سلبية ، ولا تعويق فيها ولا رجعية ، ولا تخلف فيها ولا جمود ، وهى ليست مقصورة على المساجد والمعابد ؛ لأن الدين يجب أن يكون للحياة ، وأن يكون للمجتمع ، وأن يكون لخير الإنسان فى الدنيا ، كما أنه طريق النعيم فى الآخرة .

وهذا الفصل يعد شرحا وتحديدا وتوكيدا للنصوص العامة المتعلقة بالدين التى جاءت فى الميثاق . ومن هذا التقرير يمكن أن نستخلص مقررات دينية جليلة ومهمة ، وهذه المقررات لها عبارات تشير إليها وتنص عليها قد جاءت خلال الفصول ، ولكنا نوجزها هنا ونركزها فيما يلى لتكون واضحة ، ولنعقد الخناصر على الإيمان بها ، والخضوع لها ، والسير تحت لوائها :

١ ـ الله جل جلاله أكبر من كل شىء ، والإيمان الصادق به يصنع الأعاجيب .

٢ – شعبنا يؤمن برسالة الدين الإلهى ، وهو بحكم مكانه وتاريخه مسئول عن بث تعاليمه العادلة .

٣ – لا سبيل إلى الفصل بين القوى الروحية والقوى المادية ، وهما لازمتان لنا معا .

٤ – يجب أن يقوم التوازن بين ماديات المجتمع وروحانياته المستمدة من القيم الخالدة النابعة من دين الله جل جلاله .

٥ – العقيدة الدينية ضمانة أساسية لتحقيق مطالب النضال الشعبى .

٦ – ماضينا الذى يحيط به إطار التاريخ الإسلامى ، ويتجلى فيه الاهتداء بهدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – ينبغى أن يكون نبراسا للعمل فى الحاضر والمستقبل ، وصورة للقيم الخالدة التى يقوم عليها مجتمعنا الجديد .

٧ – الدين الإسلامى يعنى عناية كبيرة بتنظيم طريق الإنسان فى الحياة الدنيا إلى جانب تنظيمه لشئون الآخرة .

٨ – شريعة العدل هى شريعة الله عز وجل .

٩ – حرية العقيدة يجب أن تكون لها احترامها دون تطاول على دين الدولة الرسمى .

١٠ – دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، ويجب النص على ذلك فى الدستور .

١١ – تعليم الدين إجبارى للجميع فى جميع المدارس .

١٢ – يجب تهيئة كل الظروف الملائمة لنمو الثقافة الدينية ، والإفادة منها .

١٣ ـ الشريعة الإسلامية الغراء مصدر أساسى للتقنين .

١٤ ـ مساواة المرأة بالرجل محدودة بحدود الدين والشريعة .

١٥ ـ الأسرة يجب أن تنهض على أساس من الدين والأخلاق والوطنية .

١٦ ـ تلزم رعاية الشباب فى النواحى الدينية والأخلاقية والعقلية والبدنية .

١٧ ـ الملكية الخاصة التى شرعها الله محترمة ، والميراث الشرعى محترم ، ولا تمس الآثار المترتبة عليه .

١٨ ـ الاشتراكية العربية تهتدى بشريعة العدل شريعة الله تعالى .

١٩ ـ الجامع الأزهر الشريف عليه واجب النهوض بالإصلاح الدينى ، مع احتفاظه برسالته وطابعه .

٢٠ ـ تلزم تقوية الروابط الدينية والروحية التى تربطنا بالشعوب الإسلامية .

الدين فى إعلان الميثاق

تتضمن عبارة إعلان الميثاق (١) التى ختم بها أكثر من معنى دينى وإسلامى :

إذ تتضمن الإيمان بالله وشريعته : شريعة الحق والخير والسلام .

وتتضمن توكيد معانى الفضيلة والقيم الدينية والخلقية والروحية .

كما تتضمن الإشارة إلى رسالتنا الخالدة التى جلاها الإسلام .

وتتضمن معاهدة الله تعالى على بذل كل طاقة لنصرة معانى الحق والخير والعدل .

ثم تختم عبارة الإعلان بجزء من آية قرآنية كريمة لتكون خير تزكية وخير خاتمة ، وهى قول الله تعالى :

« وعلى الله قصد السبيل » .

نستطيع أن نراجع هذا فى الإعلان ، فلنقرأه معا :

« إيمانا بالله ، وبما أنزل من شريعة الحق والخير والسلام .

وتقديسا لحق الإنسان فى العزة والكرامة ، وفى الكفاية والعدل .

واستمساكا بحق أمتنا فى الحياة والتحرر والانطلاق .

---

(١) تعد هذه العبارة كمهد وتأكيد من مصدرى الميثاق باحترامه والعمل بمقتضاه ، وقد تكررت تلاوة هذه العبارة فى الجلسة التى أعلن فيها المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية الميثاق وتقرير الميثاق .

وتثبيتا لخطانا على طريق ثورتنا الإنسانية والاجتماعية والسياسية .

وسعيا إلى تحقيق التكافل وتذويب الفوارق بين الطبقات.

وتوكيدا لمعانى الفضيلة والإيثار فى سلوك الفرد وصلات الجماعة .

وتجلية لطابعنا الشعبى وحياتنا الأصيلة فى إطار قيمنا الروحية والدينية والخلقية .

واعتزازا بتراثنا فى الماضى ، وبجهادنا فى الحاضر ، وعملنا من أجل المستقبل .

ويقينا بأننا جزء لا يتجزأ من الشعب العربى ، وأن أمتنا العربية أمة واحدة .

وأداء لواجبنا التاريخى ، ورسالتنا الخالدة فى بناء السلام القائم على العدل .

بذلك كله ، ومن أجل ذلك كله ، نقر هذا الميثاق ، ونعلنه إطارا لحياتنا ، وطريقا لثورتنا ، ودليلا لعملنا من أجل المستقبل .

نعلن ميثاقنا ، ونعاهد الله على أن نستمسك بكل ما فيه من معانى الحق والخير والعدل فى الحياة ، وأن نبذل كل ما أودعنا الله من طاقة لنضع هذه المعانى جميعا موضع التنفيذ « وعلى الله قصد السبيل » .

وبعد

فهذه جولة عاجلة قمنا بها لكى نتعرف على مكانة الدين فى الميثاق ، ولكى نستوحى ما جاء فيه من نصوص عن الدين المعانى الكريمة التى تثور فى قلب المؤمن الآمل الراجى ، والتى يستنبطها عقل الموقن بشريعة العدل شريعة الله تعالى .

والأساس كل الأساس فى مجال المبادىء والقيم هو التطبيق والتنفيذ ، فليضع كل منا يده فى يد أخيه ، ولننطلق على السبيل مؤمنين بالله تعالى خالق كل شىء . معتزين بوطننا الذى وهبه لنا خالقنا . واثقين أنه متى توافر فينا الإيمان والإخلاص وصدق النية – بلغنا ما نتمنى . وحققنا ما نريد . والله يهدى المؤمنين العاملين .

« القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٦٢ »

الفهرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
تصدير	٥
شعاع من كتاب الله	٧
درع الإيمان	٩
الأزهر حصن الإسلام	٢٥
رسالة الدين وضرورته	٣٧
الدين فى مراحل الكفاح	٤٩
فى حياة القائد	٦٣
الدين والحياة	٦٧
الأخلاق والطاقات الروحية	٨٧
لزوم القيم الأخلاقية	١٠٣
مع الدين فى نواحى الحياة	١١٥
الدين فى إعلان الميثاق	١٣٥